خلق لا تطوّر

عَرَّبَهُ بتصرُّف

الدكتور إحسان حقي

دار النفائس

بسم الله الرّحمن الرّحيم

A
573
Kh45

خلقٌ لا تطوّر

الإنسانُ ابنُ آدم
وليس ابنَ قرد

تأليف

فريقٌ من العلماء

عرّبه بتصرّف

الدكتور إحسان حقي

gift

LAU LIBRARY - BEIRUT
14 SEP 1999
RECEIVED

دار النفائس

جميع الحقوق محفوظة لـ "دار النفائس"

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

© دار النفائس
بيروت - ص.ب: ١١/٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - برقياً: دانفايسكو

مقدّمة

تدل المستحاثات والآثار الحجرية ثم الكتب السماوية، بعد ذلك، على أن الدين رافق الإنسان منذ نشأته الأولى، أو بمعنى آخر إن الإنسان خلق متديناً.

ومعنى التدين هو الاعتقاد بكائن أعلى إليه ترجع الأمور وهو الذي يدبر هذا الكون. ونحن لا نستطيع أن نجزم فيما إذا كان تدين الإنسان كان بوحي من الله تعالى أو أنه كان بوحي من فطرته بعد أن رأى ما يحيط بهذا الكون الواسع من آيات باهرات ومن عجائب المخلوقات التي لا بد لها من خالق.

ومع أن البشر متفقون ـ منذ القديم ـ على الإيمان بوجود الخالق إلا أنهم قد اختلفوا اختلافاً بيناً في تصوره، فراح كل أناس، بحسب إدراكهم وما يحيط بهم من مخلوقات، يتصورون الخالق متمثلاً في تلك المخلوقات العظيمة...

فالذين يسكنون شواطىء الأنهار الكبيرة قدسوها وعبدوها، والذين يسكنون في سفوح الجبال الشاهقة قدسوها وعبدوها، والذين يسكنون بالقرب من الغابات الواسعة ذات الأشجار الباسقة قدسوا الأشجار وعبدوها، والذين رأوا فعل النيران وقدرتها على التدمير قدسوا النار وعبدوها، والذين رأوا حياتهم تقوم على إنتاج بعض الحيوانات ـ كالبقر والايائل ـ قدسوها وعبدوها والذين سمت بهم أفكارهم قليلاً وارتفعوا عن الأرض، ورأوا عظمة الشمس، قدسوها

وعبدوها ومثلهم الذين عبدوا النجوم والأرواح، وعبدوا غيرها لأن عقولهم لم تكن تسمو إلى ما فوق المادة.

وقد تطورت الفكرة الدينية في أطوار كثيرة، وقسم علماء الأديان هذه التطورات إلى أربع مراحل هي:

(١) أديان ما قبل التاريخ.

(٢) الأديان البدائية.

(٣) الأديان القومية.

(٤) الأديان العالمية.

ولا حاجة إلى شرح مفاهيم هذه الديانات لأن مسمياتها تدل على مفاهيمها إلى حد بعيد، وقد انقرضت ديانات الأقسام الثلاثة الأولية، ولم يبق في عالم اليوم إلا الديانات العالمية وهي: اليهودية، والبوذية، والمسيحية، والإسلام وما انبثق عنها أو علق بها من آثار الديانات القديمة وتسمية كل هذه الديانات بالديانات العالمية فيه من عدم الدقة ومن الإجحاف والاعتساف الشيء الكثير، لأن اليهودية والمسيحية ديانتان قوميتان، فاليهود ما زالوا، إلى اليوم، لا يعتبرون يهودياً إلا من كان من أبوين يهوديين وبشروط قاسية، والمسيحية على الرغم من انتشارها الواسع فإنها ديانة قومية بإقرار المسيح نفسه حيث قال: إنما جئت لخراف بني اسرائيل، والبوذية ليست بدين بالمعنى الصحيح بل هي تصحيح واستنكار للديانة الهندوكية التي انبثقت عنها؛ كما انبثقت المسيحية عن اليهودية. وبالتالي فإن الديانة العالمية الوحيدة هي الإسلام الذي لا يفرق بين أبيض وأسود، وشرقي وغربي، وحضري وبدوي، والدين فتح صدره لكل الناس ليوآخي بينهم في نطاق إنساني واحد. ونحن لسنا هنا في معرض تصنيف الأديان بل نقبل ما قيل كما قيل ونقول: إن كل الأديان، القديمة والحديثة، وان اختلفت في كثير من الأمور، فهي متفقة على وجود خالق لهذا الكون. وقد استقرت هذه الحقيقة في نفوس الناس حتى لم يكن ليخطر في بال أحد أن يدعي غير ذلك، ولكن الذي حدث هو أن أصاب بعض العلماء نكسة، فراحوا ينكرون وجود

الخالق. ولكي يفسروا وجود هذا الكون اخترعوا «**نظرية التطور**» التي سيطالعها القارىء مفصلة في هذا الكتاب.

وقد انتشرت هذه الفكرة، في نهاية القرن الماضي ومطلع هذا القرن، انتشاراً واسعاً حتى أصبح القول: بأننا من نسل القرود حديث كل إنسان؛ لا بل أصبحت طبقة المتعلمين ترى في هذا القول حقيقة، وترى من متممات العلم أن يقول الإنسان بهذه النظرية حتى من غير أن يدرك أكثر القائلين بها معنى «التطور».

وقد كان لهذه النظرية أنصار من العلماء آمنوا بها، وتبنوها، ودافعوا عنها، وعقبوا عليها، وسعوا إلى تدعيمها؛ ولكن من حسن حظ العلم والبشرية أن كان لها مناهضون من العلماء: نبذوها واستنكروها وفندوها. وكان أول من ناهضها علماء الأديان إذ رأوا في هذا القول ما يخالف كتبهم السماوية التي تلزم المؤمنين بها الاعتقاد بكل ما جاء فيها وهي تنكر هذا القول بصراحة.

فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿واللّهُ خَلَقَ كلَّ دابَّةٍ من ماءٍ. فمنهم من يمشي على بطنِهِ. ومنهم من يمشي على رجليه. ومنهم من يمشي على أربع.. يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير﴾ (سورة النور ٤٥). وقوله تعالى: ﴿سبحان الذي خَلَقَ الأزواجَ كلها مما تنبتُ الأرضُ ومن أنفسهم ومما يعلمون﴾. (سورة يس ٣٦). وقوله تعالى: ﴿اللّهُ الذي جعلَ لكم الأرضَ قَراراً والسماء بِناءً وصوّركم فأحسنَ صورَكم﴾. (سورة المؤمن ٦٤). وقوله تعالى: ﴿ وإذا قال ربك للملائكة إني خالقٌ بشراً من صَلصَالٍ من حَمَأ مَسْنُونٍ﴾. (سورة الحجر ٢٨)، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السموات والأرضَ وصوّركم فأحسنَ صوركم وإليه المصير﴾. (سورة التغابن ٣). ومن هذه الآيات الكريمة يظهر بجلاء أن اللّهَ خَلَقَ الإنسان مباشرة إنساناً، ولم يخلقه بالواسطة أو بالتطور. وخلقه حين خلقه في أكمل صورة وأحسنها.

وتقول التوراة، وهي كتاب المسيحيين كما هي كتاب اليهود المقدس:

«وقال الله لتخرج الأرض ذرات أنفس حية كجنسها: بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها، وكان كذلك فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها. وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا... فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى خلقهم. سفر التكوين ١/٢٢ ـ ٢٧».

وجاء في كتاب «منّو سمرتي» ـ وهو أحد كتب الهنادكة المقدسة ـ قوله: «ثم إن برماتما ـ الإله الأعظم ـ الذي لا يدرك بالعقل وحده، اللطيف الخفي والمحيط بجميع المخلوقات أظهر ذاته بذاته. ثم بدا له أن يخلق المخلوقات من جسمه، فخلق أولاً الماء بفكره، ثم ألقى فيه بزرته، فصارت هذه البزرة بيضة ذهبية لها لمعان كلمعان الشمس وانبعث منها «برماتما» ذاته في صورة برهما (هو أحد آلهة الثالوث عند الهنادكة) جد العالم كله». (فقرات ٧ و٨ و٩). (ثم إن برهما خلق هذا العالم وما فيه، وقد انصرف كل مخلوق حين ظهوره إلى عالم الوجود إلى ما خلق له وإلى عمله الذي خصه برهما منذ الأزل. (فقرة ٢٨).

وأكّد هذا القول بقوله: (وذلك لأن كل مخلوق حصل حين ظهوره إلى عالم الوجود على الصفة التي اختص بها من بطش ورأفة ولين وشدة، وصلاح وفساد، وصدق وكذب، وغير ذلك. فقرة ٢٩).. ولا يكتفي الهنادكة أن تكون الأجناس قد خلقت مباشرة بل إنهم يرون أن الله خلق الفرق مباشرة أيضاً وذلك لأن الهنادكة كاليهود يؤمنون بالطبقات في المجتمع، إذ تقول الفقرة ٣١ ما يلي: (خلق برهما البراهمة من وجهه، والكثيرين من ذراعيه، والويش من فخذيه، والشودر ـ أي المنبوذين ـ من قدميه)[١].

ومن هذا يبدو أن كل الديانات تقول بالخلقة المباشرة لجميع الكائنات التي خلقها الله منذ البداية بأشكالها وأجناسها مباشرة كما هي الآن.

وكما أن علماء الأديان قد استنكروا نظرية التطور ونبذوها وفندوها استناداً

(١) كل هذه الاقوال مأخوذة من باب خلقة العالم من كتاب «منو سمرتي».

إلى كتبهم الدينية؛ فإن فريقاً من علماء الطبيعة وعلم الأحياء قد استنكروا الفكرة وفندوها أيضاً، كما يرى القارىء ذلك بالتفصيل في متن الكتاب. ولم تعد نظرية التطور إلا «ظاهرة» تذكر في معرض الشطحات التي تصدر عن بعض الناس. وقد ظهر الاختلاف بين التطوريين أنفسهم إذ أن بعضهم قد أنكر وجود الله بتة، وآخرون لم ينكروا وجوده تعالى بل قالوا: إن الله هو الذي خلق الخلية الأولى ثم تركها تنمو وتتطور بفعل نفسها.

ومن غريب أمر التطوريين أنهم نظروا إلى هذه الأرض وما عليها فراحوا يخترعون أسباباً لوجودها، ونسوا أن هذا الكوكب وما عليه من مخلوقات إنما هو ذرة في هذا الكون الواسع. فإذا كانت مخلوقات هذه الأرض وجدت من غير خالق فمن أوجد الأرض ذاتها، ثم من خلق هذا الكون وما فيه من آيات؟

ونظرية التطور تقوم على ثلاث قواعد رئيسية هي:

١ ـ أن الكائنات الحية تتبدل أشكالها جيلاً بعد جيل تبديلاً بطيئاً، وتنتج في النهاية أنسالاً تتمتع بصفات غير صفات أسلافها.

٢ ـ أن هذا التطور قديم وجد يوم وجدت الكائنات وهو السبب في وجود كل أنواع الكائنات الحية في هذا الكون وتلك التي انقرضت. وهذا هو التناسخ الذي تقول به بعض الديانات.

٣ ـ أن جميع الكائنات الحية من حيوان ونبات مرتبط بالبعض الآخر ارتباط صلة وقرابة وكلها تجتمع عند الجد الأعلى للكائنات كلها.

ولكي يسهل دعاة التطور على الناس هضم هذه الفكرة يقولون: بأن التطور لا يحصل فجأة، ولا يتم في جيل أو جيلين أو بضعة أجيال بل يحتاج إلى ملياري سنة. وإذا ما علمنا بأننا لا نستطيع أن نعود بوسائلنا التاريخية إلى أكثر من ستة آلاف سنة، وبوسائلنا العلمية إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين ألف سنة ونظل على شبه اليقين مما نقول؛ أدركنا أننا نعيش فيما وراء ذلك على فرضيات، لا بل وتخرصات يختلف العلماء بشأنها اختلافاً كبيراً. فالقول بالرجوع إلى ملياري سنة إلى الوراء لا يزيد عن حديث خرافة.

وإذا كان للصوفيين شطحات كما يقولون فيبدو أن شطحات علماء الطبيعة وعلم الأحياء، في هذا المجال، أشد إيغالاً في الخيال والحدس.

ولكن من حسن حظ العلم والإنسانية أن قام من العلماء من استنكر هذه النظرية وناهضها مناهضة علمية جاءت مفصلة في طيات هذا الكتاب ولا حاجة لذكرها هنا، فلتراجع في أماكنها بكل تفصيلاتها.

ونسأل الله خالق الأكوان الهداية إلى الصواب.

إحسان حقي

الفصل الأول

مدخل إلى التطور

مدخل إلى التطور

هل التطور حقيقة ثابتة، وهل نحن منحدرون من قردة كانت تعيش قبل ملايين السنين؟ هذا هو السؤال الذي يجب على كل إنسان من أبناء العصر أن يعرفه:

فإذا رجعنا إلى الكتب المقدسة نراها تقول بأن الله قد خلق الإنسان وغيره من الحيوانات خلقة مباشرة كما هي اليوم، وليس لدى العلماء اليوم براهين قاطعة تنفي ذلك.

ما هو التطور؟

إن مفهوم التطور الذي يشمل النباتات والحيوانات والانسان يعني التحول من نوع حي إلى نوع آخر حي.

وعرَّفت جريدة «هوستن بوست»(١) التطور بالعبارات التالية:

«إنه يعني ارتقاء الحياة من جهاز عضوي ذي خلية واحدة إلى أعلى درجات الارتقاء وهو بالتالي: التغير الذي طرأ على الإنسان نتيجة حلقات من التغيرات العضوية خلال ملايين السنين».

وجاء في كتاب: «نهر الحياة» للكاتب «بلات»(٢) قوله: «حينما خرجت

---

(١) Houston Post

(٢) Ruthe Ford Platt: Le Fleuve de la vie.

الكائنات الحية من الماء لتعيش فوق اليابسة انقلبت زعانفها أرجلاً، وخياشيمها رئات، وفلوسها جلداً».

وجاء في «الموسوعة العالمية»[١] طبعة ١٩٦٦ قولها، «إن نظرية التطور العضوي تنطوي على ثلاث فكر رئيسية هي:

١ ـ أن الكائنات الحية تتبدل جيلاً بعد جيل وتنتج نسلاً يتمتع بصفات جديدة.

٢ ـ أن هذا التطور قديم جداً وبه وجدت كل أنواع الكائنات الحية.

٣ ـ أن جميع الكائنات الحية يتصل بعضها بالبعض الآخر بصلة قرابة».

وهذا ليس بصحيح؛ لأن مجرد التغيير الذي يطرأ على أي كائن حي لا يمكن اعتباره دليلاً على التطور بل هو مثال على أنواع مختلفة في نطاق جنس واحد، وهذا ما نجده في النباتات والحيوانات والانسان. فوجود هررة كبيرة مثلاً وأخرى صغيرة، وغيرها متوسطة الحجم، وألوانها مختلفة لا يعني أن هذه الهررة نوع واحد، بل هي أنواع خلقت كذلك وليست أجسامها نتيجة تطور عضوي.

وأما فيما يتعلق بالزمن اللازم لحدوث التطور؛ فيقول الاستاذ «دوبزهنسكي»[٢]، الاستاذ في جامعة كولومبيا، في كتابه: «الوراثة وأصل الأنواع»[٣] ما يلي: «إن التطور يحتاج إلى نحو ملياري سنة، وان هناك عوامل فاعلة يمكن دراستها دراسة تجريبية».

وهناك بعض علماء التطور يقولون بأن هناك خالقاً هو الذي يحرك آلية التطور، ولكن أكثرية علماء التطور يقولون، في أيامنا هذه، بأن الحياة نشأت من مادة غير حية ومن غير أي تدخل إلهي. وقد عبر «سر جولين هكسله»[٤]، من

(١) World Book Encyclopedia

(٢) T. Dobzhansky

(٣) Genetics and the Origin of Species.

(٤) Sir Julian Huxley.

كبار علماء التطور، عن آراء زملائه بالكلمة التالية التي ألقاها في الذكرى المئوية للدارونية، والتي أقيمت في شيكاغو سنة ١٩٥٩، حيث قال: «إن التطورية لا تترك أي مجال للخوارق، فالأرض وسكانها لم يخلقوا كما هم بل تكونوا بالتطور»[١].

فهل التطور حقيقة علمية ثابتة؟

للجواب على هذا السؤال صرح «هكسله» أمام ٢٥٠٠ مندوب قائلاً: «إننا نقبل كل أحداث التطور. وتطور الحياة واقع وليس نظرية وهو أساس أفكارنا»[٢] ونجد الفكرة ذاتها في كتاب: **(علم الحياة لك)**[٣] المطبوع سنة **١٩٦٣** إذ يقول: «إن كل علماء علم الحياة المحترمين يقرون بأن تطور الحياة على الأرض أمر واقع».

هذا، وان أكثرية الأساتذة يقولون بالتطور وإليكم ما يقوله مدير إحدى الجامعات الأمريكية: «لا بد وأن يكون المرء قد اعتمد على فكرة مسبقة وتمسك بها حتى يجرؤ على أن يرفض الواقع، وأن كل من يفحص أدلة التطور لا بد له من أن يعترف بأنها واقع تاريخي»[٤].

وهناك فريق كبير من علماء الدين يوافقون على هذا الرأي أيضاً، فقد كتبت جريدة «ميلوكي»[٥] بتاريخ ١٩٦٦/٣/٥ تقول: «صرح خوري كنيسة سان جاك الكاثوليكية مؤيداً التطور بقوله»: «ليس هناك من شك بأن التطور حقيقة واقعة».

أما كون التطور مقبولا بصورة عامة فهذا مما يمكن استنتاجه من قول أحد رواد الفضاء نتيجة تجاربه خارج كبسولته، وقد علقت جريدة «نيويورك تايمس»

(١) نقلاً عن جريدة «نيويورك تايمس» تاريخ ١٩٥٩/١١/٢٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) D. F., B. B. Vance Miller– Biology for you.

(٤) نقلاً عن جريدة (New Orleans Times Picayune) تاريخ ١٩٦٤/٥/٧.

(٥) Milwaukee Journal

الصادرة في ١٤/١١/١٩٦٦ في افتتاحيتها على قوله بقولها: «إن كل ردود الفعل والغرائز المنطوية في أفكار الناس وأجسامهم بفعل ملايين السنين من التطور العضوي الأرضي قد أخضعت لتجربة قاسية بتعريضها لوسط غريب ومختلف وأعني به الفضاء».

وبالتالي فإن كثيراً من الناس في كل العالم يعتبرون التطور حقيقة راهنة لا مراء فيها.

فهل التطور أمر واقع حقاً؟

للجواب على هذا الاستفهام يكفي أن نحلل بدقة وإمعان نظر تصريحات الذين يؤمنون بالتطور كواقع لكي نرى وضعاً محيِّراً.. يبدو أن أكثر الناس يجهلونه وهو عديم المثل في فروع العلوم الأخرى.

فقد كتب «دارون» منذ أكثر من مئة سنة في الفصل السادس من كتابه **(أصل الأنواع)** المطبوع سنة **١٩٥٩** يقول: «إني لا أشك بأن اعتراضات كثيرة قد خطرت ببال القارىء قبل أن يصل إلى هذا الفصل من كتابي، وبعض هذه الاعتراضات خطير إلى حد أني، حتى اليوم، لا أفكر بها إلا وتعتريني هزة».

فهل نستطيع أن نصف التطور بأنه حقيقة واقعة؛ بينما دارون نفسه يهتز للاعتراضات الواردة على هذه النظرية؟

وها قد مضى أكثر من قرن على دارون وعلماء التطور مستمرون في أبحاثهم. فهل أثبتت هذه الابحاث واقعية التطور؟

كلا إنها لم تثبت ذلك، وها أن كتاب **(سنة العلم)**(١) المطبوع سنة ١٩٦٦ يعترف بما يلي: «على الرغم من النجاحات التي أحرزها علم الآثار؛ فإن العلماء ما زالوا في بداية المهمة العظيمة التي يتوخونها ونعني بذلك معرفة تاريخ الانسان» ونحن نقول: إن البداية التي وصلوا إليها لا يمكن اعتبارها واقعاً راهناً.

---

(١) Science Year.

ويبدو تناقض الآراء، بهذا الشأن، واضحاً من مطالعة كتاب: «**الأساس الحيوي لحرية**(١) **الإنسان**» للعالم «دوبز هنسكي» حيث يقول: «لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك، حتى العشر الأخير من القرن التاسع عشر، بأن التطور أمر واقع» ولكنه بعد صحيفتين من هذا القول يرجع ليقول: «مما لا شك فيه أن المظاهر التاريخية المتممة لحلقات التطور ما زالت غير معروفة تماماً... ولا نستطيع أن نرى الأسباب التي قررت تطور النوع الإنساني إلا من خلال ضباب».

فهو من جهة يؤكد بأن التطور أمر واقع، ومن جهة أخرى يعترف بأن المظاهر التي قررت حلقات هذا التطور غير معروفة تماما بل إنه يراها من خلال ضباب... وهل يرى المرء شيئاً ثابتاً من خلال ضباب؟!

وتقول «الموسوعة البريطانية» أيضاً مثل هذا القول حيث تقول أولاً: «ليس لدينا أي شك فيما يتعلق بكون التطور حقيقة واقعة وأن الأدلة عليها، في الوقت الحاضر، غير قابلة للرفض» وبعد بضع صفحات تصف الموسوعة المذكورة الأدلة «بأنها غير كافية وغير متسلسلة، بل هي كثيرة الفجوات».

وتضيف الموسوعة قائلة: «إننا ما زلنا لا نعرف شيئاً عن هذه الظواهر الحيوية التي قررت هذا التغيير».

ولم يتردد سر «بير»(٢) بأن يقول في كتابه الأخير المطبوع بعنوان «شارل دارون» ما يلي:

«لقد أعلن دارون بأن الأدلة سوف توجد في يوم من الأيام، وقد أتى هذا اليوم لأن سلسلة المستحاثات، التي مر ذكرها، تقدم لنا الأدلة القاطعة على أن الانسان ثمرة التطور». غير أن هذا التأكيد من قبل هذا العالم لم يمنع عالماً آخر

---

(١) The Biological Basis of Human Freedon: T. Dobzhansky.

(٢) Sir Gavin de Beer.

أن ينقضه إذ يقول الدكتور «كلارك»(١) في كتابه: (**أدلة المستحاثات على تطور الإنسان**): إن العثور على مستحاثات لأجدادنا الحقيقيين، أو حتى العثور على نماذج الجماعات الجغرافية المحلية التي انبثق عنها أجدادنا الحقيقيون، أمر احتماله من الضعف بحيث نرى من العبث توقع إمكانية حدوثه».

هذا وقد قالت مجلة «العلم»(٢) في عددها الصادر في ١٩٦٥/١/٢٢ في نقدها لكتاب: (أساس التطور الإنساني) ما يلي: «قد يدهش القارىء حينما يرى هذا الجهد الكبير للإجابة على أسئلة قليلة». وجاء في «**الموسوعة العالمية**» لسنة ١٩٦٦ ما يلي: «يجب ألّا ينخدع أحد إلى حدٍ يؤكد فيه بأن التطور ظاهرة مفهومة». وكتبت صحيفة (**أخبار العلم**)(٣)، في ١٩٦٥/٥/٢٥، تقول: إن رجال العلم يبذلون جهوداً كبيرة لكي يحددوا مرحلية تطور الإنسان وزمن ظهوره ومعرفة الحيوان الذي كان يشبهه».

فهل بالإمكان أن نطلق لفظ «الواقع» الذي يعني أن شيئاً حدث أو شيئاً موجوداً في الواقع على مراحل من الأحداث لا نعرف كيف حدثت، ولا متى حدثت، ولا أين حدثت، ولا لماذا حدثت؟

ومثال ذلك كما لو قيل: إن ناطحة سحاب تكونت بوسائلها الخاصة من آجرة واحدة كانت ملقاة في أرض براح، ولكننا نجهل كيف ومتى ولماذا تكونت وحدها ناطحة سحاب، ونجهل أيضاً ماذا كانت تشبه في مراحل تطورها. فهل نسمي هذا أمراً واقعاً أو أنه هراء؟

أما كوننا لا نستطيع أن نطلق على التطور صفة الحقيقة العلمية؛ فقد قرره الاستاذ «**كلارك**» أحد علماء التطور، بالعبارات التالية: «من المؤسف أن تكون كل الأجوبة، التي طرحت لمعرفة أصل الإنسان، تقوم على دلائل غير مباشرة وأكثرها يقوم على فرضيات».

---

(١) W. E. le Gros Clark the Fussil Evidence for Human Evolution.

(٢) Science.

(٣) Science News Letter.

وقد اعترف بنقص الأدلة رئيس «الجمعية الامريكية لتقدم العلوم» في مقال نشره في مجلة «العلوم» بصدد حديثه عن التطور فقال: «تعال معي لنقوم برحلة فرضية فيما قبل التاريخ، ولنتصور الزمن الذي ظهر فيه نوع الإنسان العاقل (**سابين**)(١) ولنقطع بسرعة آلاف السنين التي نعتمد في القسم الأكبر من معلوماتنا الحاضرة عنها، على الحدس والتخمين والاستنتاج، إلى أن نصل إلى فترة الوثائق التاريخية التي تسمح لنا بالتقاط بعض الوقائع». وإليك ما نقرره نحن:

مضت آلاف السنين قبل أن يبدأ عصر الوثائق الأولية؛ والعلماء يعترفون بأن مراحل التطور التي يظن بأنها سبقت عصر الوثائق؛ إنما بنيت على الحدس والتأويل والبحث النظري، وهي بالتالي صرح من الفرضيات. وأما فيما يتعلق بكتاب «دارون» الشهير: (أصل الأنواع) فقد أبدى عليه العالم الانكليزي الملاحظة التالية:

«لقد أحصي ما جاء في كتاب (أصل الأنواع) وحده أكثر من ٨٠٠ جملة ارتيابية مثل قوله: قد نستطيع أن نستنتج... قد يمكن أن يكون... الخ. فالمرء الذي يبحث ليفهم لا يلبث، عند سماع هذه العبارات الارتيابية، أن يقع في حيرة من هذه التناقضات؛ إذ يرى بعض العلماء يؤكدون على التطور بكل صراحة، ويرى آخرون يعترفون بأن كل الاستنتاجات فرضية!

وهذا التناقض هو الذي دفع العالم الفسيولوجي «**تهميسيان**»(٢) الملحق باللجنة المركزية للطاقة النووية، إلى القول: «إن العلماء الذين يؤكدون على أن التطور واقع علمي هم منافقون، وأن ما يروونه من أحداث إنما هو من الشعوذات التي ابتدعت ولا تحتوي على نقطة واحدة من الحقيقة»، وقد وصف هذه النظرية بأنها «خليطة مضطربة من الأحاجي وشعوذة الأرقام». وقال العالم

---

(١) Sapiens.

(٢) T. N. Tahmisian.

«كلوتز»[1] رئيس فرع العلوم في إحدى الجامعات: «إن الاعتقاد بالتطور يحتاج إلى كثير من السذاجة».

ولكي ندرك جيداً مصدر هذا الوضع المتناقض يجدر بنا أن ندرس نظرية التطور تاريخياً، وأن نفحص الأمور التالية:

متى ظهرت فكرة التطور؟ وأين هي هذه النظرية في الوقت الحاضر؟ ولماذا هذا الاضطراب والتناقض بين القائلين بالنظرية؟ وأخيراً: ماذا نجد لو طبقنا الطريقة العلمية السليمة على ملاحظة كل الوقائع ثم أخذنا النتائج؟

(1) J. W. Klotz.

الفصل الثاني

شرح نظرية التطور

شرح نظرية التطور

أبدى بعض الفلاسفة القدامى آراء يمكن وصفها بأنها تطورية، ولكن لم تقبل أي نظرية من نظرياتهم. وفي القرون الوسطى وجدت كتابات في «علم الحيوان» تحتوي على وصفات لابداع مخلوقات من الجماد مثل الذباب والنحل وحتى الفئران. ولكن نظرية التطور، في حد ذاتها، لم تظهر إلا منذ نحو قرنين.

ونذكر من النظريات الأولية المقبولة نظرية العالم الطبيعي الانكليزي: «ايراسموس دارون»[(١)]، وهو جد «شارل دارون»، ثم نظرية «كونت بوفون»[(٢)]، العالم الافرنسي، الذي عاش في القرن الثامن عشر. ويقول هذان العالمان: إن وجود نبات أو حيوان تحت تأثير وسط معين يكسبها صفة جديدة، وهذه الصفة تنتقل إلى نسليهما فتحدث انقلابات هي عوامل التطور. وهما يدعيان، على سبيل المثال: أن دروع بعض الحيوانات إنما نمت تحت تأثير عوامل متتالية. ويقولان بأن هذه الصفة انتقلت إلى نسليهما فجاءت هذه الإنسال بجلد أسمك من جلد الوالدين.

وفي بداية القرن التاسع عشر، نشر العالم الطبيعي الافرنسي، «جان بابتيست»[(٣)] كتاباً في تأييد نظرية وراثة الصفات المكتسبة، ولكنه اشترط وجود

---

(١) Erasmus Darwin.

(٢) Conte de Buffon.

(٣) Jean Baptiste de Monet. Chevalier de Lamarck.

ضرورات كوسيلة للتطور. واستناداً إلى نظريته هذه فإنه يقول: إن الزرافة اكتسبت طول عنقها بسبب عدم وجود عشب في الأرض ترعاه؛ فاضطرت إلى مد عنقها لتصل إلى أوراق الشجر، وهكذا فإن كل جيل من الزرافات أورث نسله عنقاً أطول بقليل من عنقه حتى غدت أعناقها طويلة.

ويتساءل المرء: هل كان الاعتقاد بوراثة الصفات المكتسبة أمراً شائعاً في ذاك الوقت؟ وقد أجاب على هذا السؤال العالم التطوري «بير» في كتابه الذي عنوانه: (شارل دارون). يقول:

لم يكن أحد يفكر بأن يشك في هذا الأمر قبل نهاية القرن التاسع عشر... وحتى القرن التاسع عشر كان عدد الأشخاص الذين يرفضون القول بوراثة الصفات المكتسبة يعدون على الأصابع. ولكن «اوغست وايسمن»[١] أستاذ علم الحياة الألماني جرّب في نهاية القرن التاسع عشر أن يربي فئراناً بلا ذنب؛ وذلك بأن قطع أذناب فئران قبل تلاقحها فكانت النتيجة كما جاءت في كتاب «علم الحياة»[٢] المطبوع سنة ١٩٦٦ كما يلي:

«لقد أعاد الاستاذ وايسمن هذه التجربة على عشرين جيلاً متتابعة فكان للجيل الأخير ذنب طويل مثل أذناب أسلافه الأوائل، وكانت هذه التجربة أول دليل تجريبي يثبت أن عدم وجود ذنب بطريقة اصطناعية لم يصبح إرثاً... وأن الصفات المكتسبة لا تصبح إرثية ولا يمكن أن تؤثر في وراثة الخلايا التناسلية في الأجيال الصاعدة».

ويقول الاستاذ «موللر»[٣] العالم بعلم الأنسال والحائز على جائزة نوبل ما يلي:

«على الرغم مما للبيئة من تأثير في تغيير مجمل الأجسام، وحتى بروتو بلازما

(١) August Weissman.

(٢) Milton., Mark. A. Hall S. Lesser.-Review Text in Biology

(٣) H. J. Muller.

خلاياها فإن المولدات داخل الخلية التناسلية تحفظ شكل الأجسام الأصلي كما هو، ولا تخضع لأي تغيير خاص نتيجة تغيير اصطناعي يطرأ على الجسم ولذا فإن التغيير الاصطناعي لبعض الاعضاء لا يؤثر في تغيير الخلقة الأصلية المتوارثة مع خلاياها»[١] ومثل ذلك هذه الزنجية التي مطت شفتيها بطريقة اصطناعية فلم يؤثر ذلك في طفلها الذي خلق سوياً.

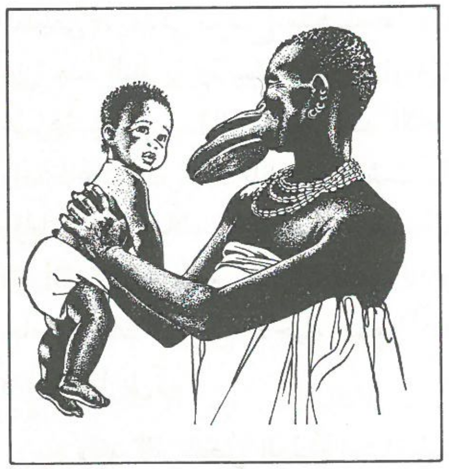

وعلى الرغم من أن كثيراً من التحقيقات العلمية قد رفضت رفضاً قاطعاً نظرية التحول الوراثي للصفات المكتسبة فإن هذه النظرية لم تتلاش تماماً، بل ما زال لها أنصار. وقد كتب الاستاذ «دو ديسويل» في كتابه: (آلية التطور)[٢] المطبوع سنة ١٩٦٠ يقول: «إن آخر جديد في النظرية اللاماركية[٣] هو ما جرى في روسيا سنة ١٩٤٨ تحت إشراف الاستاذ «ليسنكو»[٤] حيث استبعدت هذه النظرية من الميدان العلمي، ولكن استبعادها بني على أسباب عقدية (ايديولوجية) أكثر من كونها علمية» ثم بعد ذلك جاء في مجلة «تايم» لشهر «تشرين الثاني» نوفمبر ١٩٦٥: أن الاستاذ «ليسنكو» أعفي من عمله، وأن الشيوعيين أيضاً رفضوا هذه النظرية علمياً، لأن الوراثة تحددها ــ المولدات ــ وهذه تبقى ثابتة خلال الكائن الحيّ مدى حياته.

بلغت نظرية التطور أوجها بما كتبه «شارل دارون» حول هذا الموضوع ولا

(١) نقلاً عن الموسوعة البريطانية طبعة ١٩٥٩.

(٢) W. H. Dowdeswell. The Mechanism of Evolution.

(٣) نسبة إلى العالم النباتي الافرنسي Lamarck وهو القائل بالتحول الفجائي.

(٤) Lyssenko.

سيما يوم أصدر سنة ١٩٥٩، كتابه: (أصل الأنواع). ويقول «دارون»: إن هناك منافسة شديدة بين أعضاء بعض الأنواع، وخلال هذا الصراع تفرض التغييرات النافعة نفسها على الجسم، فيعيش الأصلح للحياة ويموت غير الصالح لها، وينقل الأحياء لأنسالهم التغييرات النافعة، ويفسر هذا القول ظهور أشكال حياة جديدة. وقد أطلق «دارون» على هذا التغيير الطارىء لفظ (الاصطفاء الطبيعي). ولكي نوضح مذهب «دارون» فلنأخذ الزرافة مثالاً على ذلك. وبناءً على هذه النظرية ولأسباب غير معلومة ولدت بعض الزرافات بأعناق أطول من غيرها بقليل، وانتصرت ذات الأعناق الأطول في صراعها مع الحياة، واستطاعت أن تجد غذاءها وعاشت بالاصطفاء الطبيعي، ونقلت إلى أنسالها رقاباً أطول قليلاً، وقد تكررت هذه العملية خلال أجيال كثيرة حتى صارت الزرافة كما هي اليوم. غير أن نظرية دارون هذه اصطدمت باعتراضات وجيهة إذ جاء في كتاب: (علم الأحياء اليوم)[١] المطبوع سنة ١٩٦٤، للاستاذين «كلارك ومولد» ما يلي:

«لقد أثار بعض العلماء اعتراضات كثيرة استندوا عليها في رفضهم لنظرية «دارون» رفضاً قاطعاً... أولاً: لأن النظرية لم تفسر كل عوامل الإرث.. ومثال ذلك أنها لا تفسر بوضوح لماذا بعض التغييرات إرثية، بينما البعض الآخر غير إرثي، ثم إن كثيراً من التغييرات تكاد تكون ضئيلة جداً، بحيث لا يمكن الظن بأنها قادرة على مساعدة جسم ما على الكفاح للبقاء. ثانياً: إن النظرية لا تفسر كيف أن تراكم التغييرات البسيطة المستمرة يمكن أن يؤدي إلى ظهور أجهزة معقدة كالتي نراها الأجسام العضوية للكائنات العليا».

ويقول الاستاذ «ميليرش» في كتابه: (قصة الحياة)[٢] ما يلي:

«أما بالنسبة إلى نظرية دارون فإني أرى بأن المشككين على حق في قولهم حينما يقولون: بأنه لا بد للتغييرات من أن تكون فورية حتى ينتفع بها الجسم

---

(١) Sayles. B. Clarck, Albert Mould. – Biology for to day

(٢) H. E. L. Mellersh. – The Story of Life

ليكون حظه أوفر من حظ أمثاله للبقاء حياً وإلا فما الفائدة مما تبذله العين أو أي عضو ظاهر، في مكافحة الهواء، بانتظار أن يتحول ذاك العضو إلى جناح؟... إن الاصطفاء الطبيعي يملك ذكاءً ولا غاية».

وهكذا فقد ثبت خطأ نظرية دارون كما عرضها، ورفضت من وجوه كثيرة. وفي سنة ١٩٠١ قطعت الخطوة المهمة التالية في إيضاح نظرية التطور، حيث قام العالم النباتي الهولندي «هوغو»[١] بتجارب على نبات معين؛ فشاهد نباتات جديدة لها لون أصفر وأشكال غير مألوفة تظهر بين حين وآخر، ورأى هذه النباتات الجديدة تنقل صفاتها إلى أنسالها، فسمّى هذا النبات (المتنقل)، وقد ظن هوغو بأن الانتقال النافع الشامل يفسر نظرية التطور، ومثال ذلك الزرافات المتنقلة التي صارت لها أعناق طويلة، وهي أقوى على المكافحة في سبيل البقاء من الزرافات ذات الأعناق الأقصر، وأن هذه الزرافات المتنقلة أنتجت أجيالاً ذات أعناق طويلة وهذا، في نظره، يفسر تطور هذا النوع.

ولم تلبث هذه النظرية الجديدة أن أثارت الانتقادات، ومن الانتقادات التي وجهت للتغير الفجائي الذي اعتبره هوغو سبب التطور ما قاله الاستاذ «بير» وهو: «كثيراً ما كان هذا الانتقال الفجائي يحمل معه الموت العاجل إلى الجسم الذي يحمله... وبصرف النظر عن كونه لا يؤدي إلى الحصول على الأفضل من الصفات، فإنه يبدو بأنه عارض مرضي، ولا يوفر أي إيضاح لسبب تقبل الاجسام هذا التغيير، ولا لجعلها أصلح حالاً. ومن هذا نستنتج بأن الأبحاث التي أجريت خلال العشرين سنة الأولية من القرن العشرين كلها مضطربة ومبهمة شأنها في ذلك شأن نظرية التطور».

وإليكم فيما يلي لمحة عن نظريات التطور الرئيسية التي سبق ذكرها، والتي ذكرها كل من «ده هال»[٢] و«ليسير»[٣] في كتاب (علم الحياة) المطبوع سنة ١٩٦٦ حيث قالا:

---

(١) Hugo de Vries.

(٢) De Hall.

(٣) Lesser.

«ما دامت نظرية لامارك ـ وهي وراثة الصفات المكتسبة ـ فإنها لم تعد تذكر إلا للذكرى، وأما نظرية «دارون» وهي الاصطفاء الطبيعي فإنها لا توفر تفسيراً كافياً عن أصل الأنواع ولا عن الوراثة... وأما نظرية هوغو ـ وهي الانتقال الفجائي الشامل ـ فإنها بادية الهزال، إذ لم يحدث قط أن وقع انتقال واحد كبير أو مجموعة الانتقالات ونتج عنها نوع جديد في جيل واحد»[١].

فهل نظم العلماء، في وقتنا الحاضر، هذه النظرية وأبعدوها عن الفوضى؟ وما هي النظرية التي تقبلها بسهولة أكثرية القائلين بالتطور؟ وإذا وجد، فهل ثبت أنها الأقرب إلى الواقع وأكثر استناداً إلى العلم من سابقاتها؟

النظرية الحديثة

ظهرت خلال السنوات الأخيرة نظرية جديدة اعتنقها عدد كبير من القائلين بالتحول. وتنطوي هذه النظرية على بعض آراء «دارون وهوغو» معاً وقد كتب الاستاذ «مارتن»[٢] في مجلة «العلوم الأميركية»[٣] لشهر (كانون الثاني) يناير ١٩٥٣ يوضح هذا المذهب الجديد بالعبارات التالية: «إن الأكثرية العظمى من علماء الحياة يقولون بالتطور الذي يحدث بالانتقال وبالاصطفاء الطبيعي معاً».

وتقول هذه النظرية الحديثة: إن انتقالاً بسيطاً ونافعاً على جسم ما فيصبح هذا الجسم أقدر على الاستمرار في الحياة من غيره من أبناء جنسه، وهذا الانتقال ينتقل بالوراثة خلال أجيال كثيرة متتابعة. وخلال بضعة ملايين من السنين يحدث انتقال آخر نافع في النسل ذاته وهكذا دواليك حتى تنتهي الاجسام إلى أشكال مغايرة لأشكالها الأصلية. وقد اختصرت جريدة «اوكلاهوما

(١) نقلاً عن Review Text of Biology.

(٢) C. P. Martin.

(٣) American Science.

سيتي تايمس»[١] في عددها المؤرخ في ١٩٦٦/٨/١٠ النظرية الجديدة بقولها: إن التعديلات العارضة في الآلية الإرثية جعلت الانسان رويداً رويداً ـ وعلى المدى الطويل ـ أكثر صلاحية من منافسيه للانسجام مع وسطه.

هذا هو الرأي العلمي المقبول اليوم بشكل عام. ويطلق العلماء على مراحل التغييرات الطويلة التي كثيراً ما تكون خرقاء لفظ «التطور». وبما أن هذه النظرية الحديثة تقوم على شيء من العقيدة الداروينية ـ القائلة بالاصطفاء الطبيعي ـ فقد وصفت، غالباً، بالداروينية الحديثة.

ولكي نوضح هذا المذهب الجديد فلنعد إلى الزرافة ونقول: إنه خلال الاعمار السابقة لأجداد الزرافة كانت أعناق أولئك الأجداد أقصر من أعناق زرافات اليوم، ثم يبدو أن أجداد هذه الضرعيات قد اضطرت إلى أن تمد أعناقها لكي ترعى ورق الشجر؛ فاستطاعت هذه الحيوانات (المنتقلة) ذات العنق الذي هو أطول بقليل من أعناق بنات جنسها، أن تعيش بأعداد أوفر من غيرها، لأنها استطاعت أن تبلغ أوراق الأشجار، وأن تتغذى لكي تعيش.

وأما الزرافات قصيرة العنق فقد انتهت إلى الفناء، بينما عاشت ذوات الأعناق الطويلة وأنتجت. ومن المفروض أن يكون هذا التطور قد استمر دهراً طويلاً حتى بلغت الزرافة عنقها الحالي.

إن فريقاً من القائلين بنظرية التطور يزعمون بأن هذا القول تفسير مقنع للتطور. ويقول «جان روستان»[٢]، العالم بعلم الحياة والقائل بالتطور: «إن قضية التطور أصبحت بالنسبة إلى أنصارها محلولة بالتمام والكمال وبصورة نهائية، وإننا نملك الآن تفسيراً كاملاً لها عن طريق الاصطفاء الطبيعي والانتقال».

بعد أن وصلنا إلى هذه المرحلة نجد أن القضية لم تحل، بل نحن أمام

(١) Oklahoma City Times.

(٢) Jean Rostand في كتابه: «التطور» الذي ظهر سنة ١٩٦٠.

مفترق طرق مخير؛ وذلك أن الداروينية الحديثة لم تحل كل القضايا، بل قد ظهر عكس ذلك. وتتجلى هذه الظاهرة في المقالات الانتقادية، ومنها مقال ظهر في «ساينس دايجست» في عدد (كانون الثاني) يناير ١٩٦١ بعنوان: هل يجب أن نحرق دارون؟ حيث يقول الكاتب:

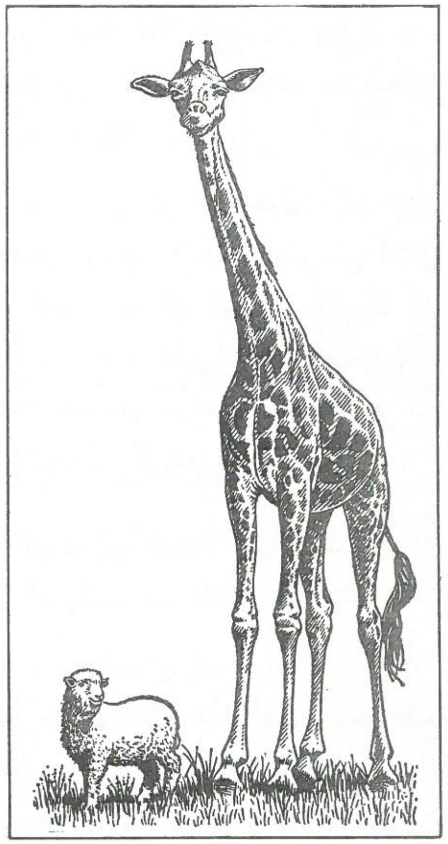

«لعل من أبرز ما تمخض عنه المجال العلمي في فرنسا، خلال العام المنصرم، هو نبذ نظرية التطور. فبعد أن كانت هذه النظرية موضع نقد في الماضي أصبحت اليوم هدف حملة شديدة يبدو أنها فتحت الطريق، في فرنسا على الأقل، لنظرية جديدة بشأن أصل الأنواع. وإليكم بعض الاعتراضات المحرجة التي يدلي بها المعارضون الافرنسيون وهي: إذا كانت الزرافة ذات العنق الذي يزيد على مترين هي حصيلة الاصطفاء الطبيعي، وأنها أفضل مثال على تنازع البقاء، فماذا يقول أصحاب هذا الرأي بالخروف الذي لا يزيد طول عنقه على بضعة سانتيمترات؟ ثم أليس الزرافة والخروف أبناء عم أو أخوان في عالم الحيوان؟

فهل باستطاعة أولاد عم يعيشون جنباً إلى جنب ويكون أحدهما أقدر على البقاء من الآخر، لأن أحدهما طويل العنق والآخر قصيره؟ ثم ماذا نقول بشأن قرون الخروف؟ فالنظرية الكلاسيكية ترى أن هذه القرون ظهرت اتفاقاً، ثم إنها أخذت تنمو على قدر ما ظهر لها من فائدة في الكفاح من أجل دوام الحياة، وأن الطبيعة اصطفت ذات القرون وقضت على عديمة القرون. فهل هذا

صحيح؟ كلا. إذ أن هناك في الحياة عدداً من أنواع الخراف عديمة القرون بقدر ما يوجد منها من ذوات القرون. فأي النوعين مؤهل أكثر من الآخر للحياة؟

إن بيضتين من ١٢٠,٠٠٠ بيضة من بيوض الضفدع الأخضر تكتب لها الحياة فقط فهل نستطيع أن نستنتج من هذا بأن الطبيعة قد اختارت بيضتين فقط من ١٢٠ ألف بيضة لأنهما أقدر على البقاء، وكيف تم هذا الاختيار؟ أو يجب على الضد، أن نستنتج بأن الاصطفاء الطبيعي إنما هو ما يتركه الموت الأعمى الذي لا يعرف أن يصطفي شيئاً قط؟»

والمثال الثاني من الحملة التي شنت على النظرية الداروينية الجديدة جاء في قول العالم الشهير «جان روستان» في كتابه (التطور) إذ يقول ما يلي:

هل أن قضية التطور قد حلت الآن حقاً كما يقول أصحاب نظرية الداروينية الحديثة؟ أما أنا فإني لا أعتقد ذلك ولا أستطيع أن أصر، ككثير غيري، على الاعتراض على هذه النظرية... إن الانتقال، الذي نعرفه، والذي ينسبون إليه عالم الأحياء إنما هو، على الغالب، الحرمان من عضو أو زيادة عضوية على عضو موجود قبل ضياع الصبغيات أو انعدام زائدة ما، وهذا، على كل حال، لا يأتي بشيء جديد أو مبتكر بالنسبة إلى الكيان العضوي ولا يأتي بشيء يمكن أن يظن بأنه قابل أن يكون أساساً لعضو جديد أو بداية لعمل جديد.

إنني، بكل تأكيد، لا أستطيع بأن أعتقد بأن هذه (الهفوات) الإرثية قد استطاعت، حتى مع مساعدة الاصطفاء الطبيعي، وحتى مع طول الزمن الذي اقتضاه تطور الحياة، بأن تنشىء كل عالم الأحياء بكل ما يحويه من ثراء ولطافة هيكل ومن مؤهلات عجيبة... إنني لا أستطيع أن أتصور بأن العين والأذن ودماغ الإنسان قد تكونت بهذه الكيفية... إني لا ألمس شيئاً يؤهلني لفهم هذا التغير العميق وهذا التحول العجيب الذي نتصوره في تاريخ التطور حينما نستعرض «فيلم» مرورنا من مخلوقات غير فقارية إلى مخلوقات فقارية ومن

أسماك إلى ضفدعيات، ومن ضفدعيات إلى زواحف، ثم من زواحف إلى حيوانات ثديية».

وبعد أن نبذ الأستاذ «روستان» كل مبادىء النظريات الاصطفائية أو شك بها؛ تساءل قائلا: «هل سنفاجأ في المستقبل بفكرة كبيرة جديدة تتعلق بآلية التطور»؟ ثم قال: «إننا ولا شك لا نستطيع أن ننفي هذا الاحتمال، ولكن من الصعب أن نستبعد حدوث بعض الارتياب».

على أن قول الأستاذ هذا لم يمنعه أن يضيف قائلاً: «يجب ألا تتخذ هذه النتيجة الصريحة مبرراً للشك بالتطور» غير أن الباحث المنصف لا يستطيع إلا أن يشك. فبعد بضعة قرون من النظريات والأدلة والتأكيدات المتضاربة؛ لا يستطيع غير المطلع الذي يسعى لمعرفة الحقيقة إلا أن يدرك بأن التطور ليس أمراً واقعاً، بل هو نظرية، ولابد للوصول إلى الحقيقة من الاستقصاء.

الفصل الثالث

هل تأتي الحياة من الجماد

هل تأتي الحياة من الجماد

تقول نظرية التطور: بأن الحياة الأولى ظهرت على سطح الأرض من الجماد بوسائلها الخاصة، وأن كل المواد الأرضية مركبة من عناصر كيماوية، والعنصر مكون من ذرات ذات عدد ذري موحد لا يمكن تفكيكه بالتحليل الكيماوي العادي فإذا كان الجماد قادراً على أن يتطور هل شوهدت هذه القدرة في العناصر الأرضية؟ الجواب هو بالنفي، وسبب ذلك علمي وهو أن أكثر الذرات مستقرة وبعضها يتحول بالتفكك إلى عناصر مستقرة أكثر بساطة أي أنه ينحط ويرجع إلى الوراء لا يتطور ويتقدم، وهذا الأمر يتم تبعاً للمبدأ العلمي المعروف باسم (ضابطة التغيير)[1] وهذا يعني أن كل كيان منظم يكمن فيه ميل إلى التراجع إلى كيان أقل تنظيمًا، ولا يمكن الحصول على نظام جديد من غير تدخل قوة خارجة. ومثال ذلك عناصر الأرض من حديد وخشب ونحاس وغير ذلك لا تستطيع أن تصنع من نفسها سيارة حتى ولا إبرة. ولو أخذ الإنسان هذه العناصر وصنع منها قطعاً تصلح لتكون آلة ولكنه لم يركبها تركيباً فنياً، بل تركها متفرقة؛ فإنها لا تستطيع أيضاً أن تكون شيئاً بل تبقى قطعاً كما صنعتها يد الإنسان.

ولو أخذنا قطعاً من الفولاذ والزجاج والنحاس والمطاط وغيرها من المواد، ثم وضعناها في برميل وحركنا البرميل آلاف المرات فهل تتحول هذه المواد إلى

---

(١) Entropie.

شيء آخر، بأن تصبح سيارة مثلاً أو تصبح خزانة؟ كلا، إن هذا لا يحدث قط مهما أعيدت التجربة... ومن هذا الواقع علينا أن ندرك حقيقة أساسية وهي: أن الجماد غير قادر على تحسين نفسه بنفسه. بل هو، على الضد، يميل إلى التجرد، أو الاستقرار ولا فائدة قط من الاعتماد على طول الزمن، لأن طول الزمن يؤدي إلى الانحلال والتفكك، ويسبب انقراض المعادن وتفتت الصخور. ان الزمن عامل رئيسي للهدم وليس للبناء، والزمن هو عدو التطور.

وهذا ثابت أيضاً بقانون **(عدم الحركة)** القاضي بأن تبقى كل الأجسام ثابتة إذا لم تحرك بعامل خارج عنها، فإذا حركت اتجهت اتجاهاً واحداً إلا إذا تحركت بقوة خارجة. ومثال ذلك الكرة؛ فإنها لا ترتفع في الهواء من نفسها بل لا بد لها ممن يدفعها. وتبقى المركبة ثابتة في مكانها إلا إذا أخضعت لقوة خارجة. هذا، وإن الجماد محروم من الحركة ومن القوة ومن الحياة، ويبقى عديم الحركة حتى تحركه يد خارجة مسيرة ومنظمة.

وكتبت مجلة «المكتشفات»(١) في عددها الصادر في شهر (أيار) مايو ١٩٦٢ مقالاً في نقد كتاب: (الآلية والحياة) للاستاذ «شوبيرت سولديرن»(٢) تقول:

«إن كل الجزئيات هي حصيلة ميل الكهربائية الكيماوية إلى التجرد والعزلة. ومن سوء حظ الماديين أن تكون الحياة ذات صفة غير مستقرة، كما أنه من غير المعقول أن تكون مجموعة من المواد الميالة إلى التجرد والاستقرار، ثم إنها تكون قادرة على توليد عدم الاستقرار الكيماوي الدائم الذي هو صفة لازمة للكائنات الحية. وبالتالي فإنه من غير المقبول علمياً أن تستطيع مجموعة عضوية أن تتكون من غير حياة. ولا يستطيع المرء أن يتصور وجود مواد غير عضوية في الحالات التي يستطيع الفحم والاوكسجين والهيدروجين أن تتحد لتكون سكراً، فضلاً عن الماء وغاز الفحم.

(١) Discovery.

(٢) R. Schubert Soldern. — Mecanisme et Vitalisme

وهكذا فإن الواقع لا يكشف عن أي تطور تدرجي للعناصر الأرضية، نحو مواد أكثر تعقيداً أو نحو مركبات عضوية. هذا بالإضافة إلى أنه لو كان التطور أمراً واقعاً لكان من الواجب على العناصر غير الحية أن تتطور وتتحول لا إلى عناصر أخرى فقط أو إلى أجسام عضوية مركبة بل إلى أشياء أكثر تعقيداً كالخلية الحية.

ما هي الخلية الحية؟

إن الهوة التي تفصل بين الخلية الحية وبين العناصر غير الحية هوة عميقة، حتى أن أحسن المختبرات تجهيزاً غير قادرة على خلق خلية بسيطة من الجماد، وحينما تكون قادرة على ذلك فإن التجارب لا تفيد إلا بأن تثبت بأنه لا بد للعناصر من أن تخضع لفعل قوة مدبرة لكي تنتج مادة حية. ومن الخطأ الظن بأن الخلية شيء بسيط وأنه بالمستطاع أن تنبثق عن المادة غير الحية بسهولة ومن غير يد القدرة.

وقد كتبت مجلة «لوك»(١) في عددها الصادر في ١٦ (كانون الثاني) يناير ١٩٦٢ تقول: «إن الخلية لا تقل تعقيداً عن مدينة نيويورك». هذا، وإننا بقدر ما نفحص الخلية الحية بدقة بقدر ما نجدها معقدة. وقد كتب العالم التطوري «لورن ايزله»(٢) في كتابه: (السفرة الواسعة)(٣) بهذا الصدد يقول: «قال العالم بالأحياء الألماني ــ فون برتالانفي ــ(٤) إن الالمام بتفصيل النظام الفيزيائي الكيماوي لأبسط خلية يفوق طاقتنا». وقال العالم بعلم الحيوان الاستاذ في جامعة كمبردج «سر جيمس غرى»(٥) القول ذاته في مجلة (العلم اليوم)(٦) إذ يقول: «إن الجرثومة هي أشد تعقيداً من أي نظام جمادي يعرفه الانسان، ولا يوجد مختبر في العالم يمكن أن يوازي في نشاطه الحيوي الكيماوي أصغر جهاز

(١) Look.

(٢) Lorn Eiseley.

(٣) Immence Voyage.

(٤) Von Bertalanffy.

(٥) Sir James Gray.

(٦) Sience Today.

حيّ» وقال الاستاذ «بونر» في كتابه: (أفكار علم[1] الأحياء) ما يلي: «إن الخلية وحدة عجيبة التركيب من حيث التطور. ويبدو لنا أنه من الأسهل أن نتصور تحول خلية وحيدة إلى نبات أو حيوان معقد من أن نتصور مجموعة من المواد الكيماوية تتحول إلى خلية، هذا وإن الدراسة البدائية للتطور قد هبطت إلى مرتبة الظنون العلمية».

وكتبت جريدة «نيويورك تايمس» في صحيفتها العلمية في ١٩٦٦/١١/١٣ بصدد خلية النبات تقول: «إن أعظم ما في الكون هو عملية صنع أصغر وحدة حية... أي خلية النباتات الخضر. وتسمى هذه العملية التأليف الفوتوغرافي(٢). وبفضل هذه العملية يتحول كل سنة مئة مليار طن من المواد غير العضوية، أي الفحم، إلى مواد عضوية هي قوام الحياة. وعلى سبيل المقارنة نذكر أن مجموع أفران العالم الكبيرة لا تصنع في الفترة ذاتها، إلا نصف مليار طن من الفولاذ».

إن تعقيد الخلية ومقدار إنتاجها يدحضان استنتاج التطوريين، وذلك لأن ما ينطوي عليه الفرن العظيم من صفات معقدة ومن إنتاج عالٍ؛ يضطرنا إلى الاستنتاج بأن صانع هذا الفرن دماغ ذكي، أو ليس من المنطق أن نستنتج النتيجة ذاتها بالنسبة إلى الخلية؟

إن النيرون أو الخلية العصبية الصغيرة هي خير مثال على تعقيد الخلية. ودماغ الانسان الواحد يحتوي على ما لا يقل عن عشرة مليارات من هذه الخلايا. وقد مضى وقت كان يظن فيه بأن النيرون هو وسيلة الاتصالات، أو هو مركز التوزيع. ولكن الأبحاث الأخيرة قد أثبتت بأن النيرون أشد تعقيداً من حاسبة الكترونية. فلو اخترع عالم آلة ذات نظام فائق التعقيد بعمل البرمجة الآلية ولا تقيس إلا جزءاً واحداً من أربعين جزءاً من المليمتر، أفلا نعتبر هذا العمل عملاً رائعاً؟.. ثم لو قام من يدعي بأن هذه الآلة المنظمة قد أوجدت

---

(١) John Tyler Bonner. — The Ideas of Biology

(٢) Photo Synthese.

نفسها بنفسها، وأنها انبثقت من الجماد عن طريق التطور من غير أن يصنعها عقل مفكر فهل كان يصدقه أحد؟

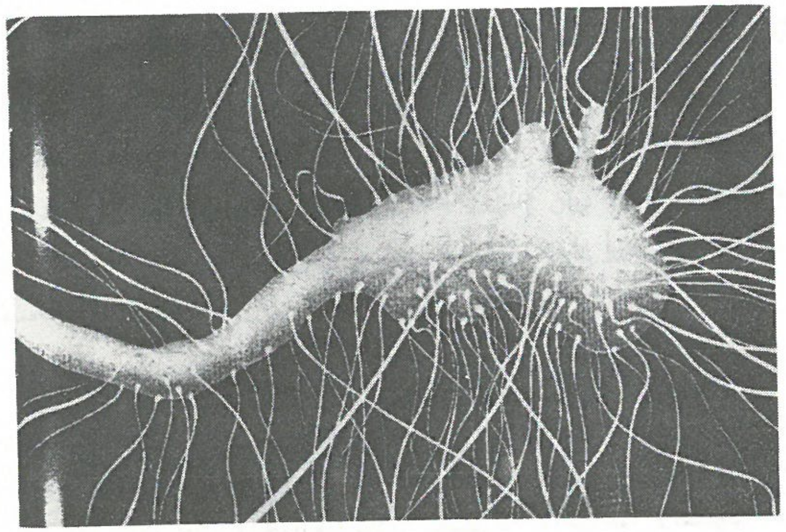

في دماغ الانسان ما لا يقل عن عشرة مليارات من هذه الخلية المكبرة عشرين ألف مرة عن حجمها الطبيعي.

إن صنع كتاب ما هو عمل بسيط بالنسبة للخلية ومع ذلك فلا بد للكتاب من كاتب يكتبه، وطابع يطبعه، ومجلد يجلده، ولا يستطيع كتاب أن يصنع نفسه بنفسه. وعلى سبيل المثال فلنأخذ المعجم الأمريكي المعروف باسم Webster الذي لو أراد كاتب واحد أن يكتبه لقضى في عمله ٧٥٧ سنة، يضاف إليها ساعات طبعه على الآلة الكاتبة، وصنع الصور، وأعمال المكتب والاستعانة، بأكثر من مئتي خبير مستشار، وعدد كبير من العمال لكي يطبع ويجلد. فمن يستطيع أن يدعي بأن هذا المعجم الكبير هو حصيلة جزيئيات من الحبر التقى بعضها بالبعض الآخر فوق الورق بطريق المصادفة وشكلت هذا المعجم؟ واذا كان هذا العمل قد ظهر إلى حيز الوجود تحت إشراف عقول ذكية أفلا يجب أن تكون الخلية، التي هي أشد تعقيداً، قد خلقت بفعل فاعل؟

وقد قال «ايدوين كونكلن»[١] أستاذ علم الأحياء في جامعة برنستون[٢] ما يلي: «**من الممكن أن تظهر الحياة مصادفة إذا كان بالامكان أن يظهر معجم تام نتيجة انفجار في مطبعة**».

وإليكم ما قاله العالم التطوري «لورن ايزله» في كتابه «السفرة الواسعة»: «لقد أدت الجهود الكثيرة التي بذلت إلى التأكيد على أن المتحول (اميب) هو أيضاً مصنع كيماوي معقد يعمل بوسائله الخاصة، وأن ما كان يقال من أنه قطرة بسيطة من البروتوبلازما (الأجسام الحية) وأنه متى عرف تركيبه أصبح بالامكان خلق كائنات حية، فقد ثبت الآن أنه قول هراء ليس له أدنى نصيب من الصحة.

وان فشل الجهود الكثيرة التي بذلت في هذا المجال تركت العلماء في وضع مضطرب وجعلتهم يلحون في تقديم النظريات بشأن أصل الحياة من غير أن يقدروا على إثبات نظرياتهم. وبعد أن اتهم العلماء رجال الدين بأنهم يعتمدون في أقوالهم على الأساطير والخوارق عادوا مضطرين واخترعوا لأنفسهم أساطير جديدة هي أن «**ما لا يستطيع العلم أن يوجده اليوم قد استطاع ايجاده عند خلقه العالم!**».

إن هذه الأقوال المناهضة للواقع تثبت أن العناصر الأرضية غير الحية لا تنقلب إلى كائنات حية فجأة وقد اعترف بذلك «لورن ايزله» بهذه العبارات:

«من الجدير بالملاحظة أن أول كتاب في علم طبقات الأرض بعد أن أغرق المبتدئين البسطاء في بعض المستنقعات الصغيرة أو في حفر خيالية من المحيط. حملهم بقفزة واحدة، باطمئنان وسرعة، إلى أول مراحل الحياة بحيث جعلهم يرون السر الغامض، إذا كان هناك من سر، وكأنه شيء بسيط. وقد انتقد هذا الوضع العالم بالأحياء الانكليزي «ودغر»[٣] الذي نبه منذ بضع سنوات إلى هذا

(١) Edwin Conklin.

(٢) Princeton.

(٣) Woodger.

الواقع بقوله: «إن المركبات العضوية غير مستقرة في الطبيعة وأن جسيم الكلوروفيل لا يستمر في البقاء ولا يأتي إلى الحياة من عند نفسه، فالإصرار على أن الظروف في الماضي كانت تسمح بحدوث هذه الظاهرة، على الرغم من أن معلوماتنا بالطبيعة لا تؤيد هذا الافتراض. إنما هو عقيدة اعتقدوها، ولا يريدون أن يتحولوا عنها، لكي يؤكدوا على أن ما اعتقدوه قد وقع حقاً»[١].

وكتب العالم التطوري «رويتر فورد بلات» في كتابه (نهر الحياة) بشأن الخلية الحية يقول: «إن وحيدة الخلية الأولى هي من الكمال في حالة لم تحتج معها إلى التطور قط، ولم يطرأ على حجمها وطبيعتها أي تبديل منذ أن ظهرت في عالم الحياة على الأرض وإلى يومنا هذا».

فإذا كانت الخلية حصيلة التطور فلماذا لم تستمر في تطورها؟ أو هل كانت هذه الآلة المعقدة كاملة، بطريق المصادفة، منذ يومها الأول؟ وهل نعرف آلة من صنع الانسان لم يحتج بلوغها درجة الكمال سنوات من البحث والدراسة؟ إنه لم يحدث حتى الآن أن اخترع، حتى أعظم الناس عبقرية، آلة كاملة لا يمكن إدخال تحسين عليها. في حين أن الخلية آلة كاملة. فهل من العلم في شيء إدعاء التطوريين الذين يزدرون بالواقع؛ ويقولون بأن المواد غير الحية والمحرومة من الذكاء قد استطاعت أن تصنع ما لم تستطع أكثر العبقريات الانسانية رفعةً أن تصنعه؟

من أين تأتي الحياة؟

ليست، في حقيقة الأمر، نظرية تطور الخلية الحية من المادة غير الحية إلا صورة منقحة عن النظرية القديمة القائلة بالخلقة المفاجئة، تلك النظرية التي أهملت رويداً رويداً بعد أن اتضحت بعض البراهين العلمية. وقد جاء في كتاب: (علم الأحياء) بهذا الصدد ما يلي:

(١) نقلا عن كتاب «السفرة الواسعة».

«كان الطبيب الايطالي «فرانسيسكو ريدي»(١) أول من أجرى تجارب مراقبة سنة ١٦٨٨، ورفض الاعتقاد القائل بأن الديدان تتوالد من لحم السمك والحيات أو من اللحم المتفسخ، وأثبت بأن ذبابة اللحم والـذباب العادي ولد من آباء أحياء وليس من مواد غير حية.

وأخذ القس الايطالي «لا زارو سبالانزاني»(٢) سنة ١٧٨٠ عصيراً من أنواع مختلفة من الخضار ووضعه في مرطبان محكم الاغلاق، ثم غلى هذا المحلول، وبعد ذلك تركه يبرد، ثم بعد أيام فحصه بالمجهر فلم ير أثراً لأي نوع من الحياة فيه فاستنتج من ذلك بأن الغليان قد قتل في هذا العصير كل حياة قد يمكن أن تكون موجودة فيه قبل غليانه، وبالتالي فلم يبق فيه أي حياة يمكن أن تلد حياة أخرى.

وجاء العالم الافرنسي «باستور»(٣) وأثبت سنة ١٨٦٠، بشكل قاطع، أن الميكروبات الموجودة في كل مكان تعدي المواد العضوية وتتغذى بها فإذا تغذت ونمت تتوالد وتكثر، وما دام المرطبان الحاوي على مغلي مغذي مغلقاً إغلاقاً محكمًا ومعقمًا فلا تظهر فيه ميكروبات حتى بعد شهور عديدة.

إن أصل كل حيّ مهما كان بسيطاً قائم على المبدأ العلمي القائل بولادة الحيّ من الحي. وتقول «الموسوعة الأمريكية» بهذا الصدد ما يلي:

«إن لفظ (أحيائي) يعني القانون الطبيعي القاضي بولادة كائن حي من كائن حي مثله... وإن علماء الأحياء، اليوم، مجمعون ليس فقط على أن الحياة تأتي من الحياة بل على أن كل حي يأتي بحي مثله».

وهذا القول يوافق الواقع تماماً إذ لم يشاهد، في الواقع، مادة حية انقلبت إلى مادة حية بمحض إرادتها بأي شكل من أشكال الحياة. ولا يمكن للحياة أن

(١) Francesco Redi.

(٢) Lazzaro Spallanzani.

(٣) Louis Pasteur.

تأتي إلا من حياة قبلها. ويقول كتاب «علم الأحياء» لـ«فانس وميلر»(١) بهذا الصدد ما يلي:

«إن جميع أشكال النباتات والحيوانات التي فحصناها خلال دراساتنا للأحياء رأيناها تنتج نسلها عن طريق أجسامها، وليس بأي طريق أخرى».

هذه بعض المعطيات العلمية، هذا بالاضافة إلى ما يؤكده الاستاذ «غاردنر»(٢)، العالم بعلم الحيوان في كتابه: (التطور العلمي) إذ يقول:

«في الماضي السحيق، الذي يرجع إلى أكثر من مليار سنة، ظهر فجأة نوع من المخلوقات، وقد يمكن أن يكون انبثق عنها أنواع الحياة الموجودة الآن، على سطح الأرض... أما أن تكون المصادفة قد جمعت العناصر المتناسقة والطاقة اللازمة والوسط المناسب لهذا الابداع فهذا قليل الاحتمال ولكن، في الحقيقة، إن ما كان مستحيلاً خلال الأزمان الغارقة في القدم يغدو من الأمور التي لا يمكن تجنبها».

فكيف يمكن أن نصف قولاً مثل هذا بأنه علمي وهو يخالف كل واقع ثابت؟ إن هذا القول ليس بعيداً عن العلم فقط، بل ويدل على عدم النضوج أيضاً!

من وحيد الخلية
إلى جهاز كثير الخلايا

ما دامت الخلية قد ظهرت كاملة منذ بداية خلقتها، فلماذا تتحول إلى أشكال من الحياة أكثر تعقيداً؟

هذا، بالإضافة إلى أنه ما دامت الكائنات ذات الخلية الواحدة كالاميب

(١) للاستاذين Biology for you Miller, Vance.

(٢) E. J. Gardner. — Organic Erolution

مثلا قد ظلت على حالها لم تتغير حتى اليوم، فكيف حدث أن تعرض بعضها للتطور الارتقائي، بينما ظل غيرها على حاله كما كان؟

وإذا كنا نستطيع أن نشبه الخلية الواحدة بآلة الكترونية منظمة؛ فما بالكم بأشكال الحياة التي هي أكثر تعقيداً والتي تحوي مليارات الخلايا التي تقوم بأعمال متشابكة تعجز عنها أعظم آلة؟

وقد كتبت «المجلة العلمية»[1] لسنة ١٩٦٥ تحت صورة آلة الكترونية كثيرة التعقيد ما يلي:

«يبدو بأن العنكبوت أبسط مخلوق من حيث الطبيعة، وأن شبكته ذات نسيج بسيط على الرغم مما فيها من تناظر. ولكن العنكبوتة وشبكتها أكثر تعقيداً، في الواقع، من آلة معقدة من حيث مجموعة خيوطها ودماغها الالكتروني... وحينما ينظر العلماء إلى الطبيعة يجدون أنفسهم أمام أشياء بسيطة وأخرى معقدة وليس هناك من شيء أكثر تعقيداً من الحياة ذاتها».

لماذا يخترع شكل بسيط من أشكال الحياة عضواً جديداً مثل العين؟ وكيف يعرف هذا الجهاز أن العين نعمة من غير أن يعرف ما هو النظر؟ وكيف يعرف أيضاً بأنه قادر على الرؤية؟

إن العين تتألف من أجزاء كثيرة لطيفة ومنسجم بعضها مع البعض الآخر انسجاماً تاماً مثل القرنية، والبؤبؤ، والقزحية، والشبكية، والعصب النظري، والعضلات، ومجاري الدمع. لقد كان من الواجب أن تخضع كل هذه الأجزاء إلى التطور في آنٍ واحد وإلا كانت العين غير نافعة! إن عيناً غير كاملة الأجزاء تكون عديمة النفع. وإليكم ما قاله «دارون» بهذا الصدد في كتابه «أصل الأنواع»: إني أعترف أنه من الحماقة الظن بأن الاصطفاء الطبيعي قادر على صنع عين مع كل ما تحويه العين من مؤهلات غير قابلة للتقليد؛ مما يمكنها من

(١) Science Year.

إحكام البؤرة على مسافات مختلفة، ومن قبول مقادير مختلفة من النور، ومن إصلاح الانحراف الجوي والزمني».

عمل «دارون» جاهداً لكي يثبت بأن العين خلقت بنتيجة تطور استمر خلال مراحل كثيرة... ويفسر علماء التطور، في أيامنا هذه، ظهور الأعضاء المعقدة بأنها جاءت نتيجة الاصطفاء الطبيعي، ويقولون: إنه حينما يحدث في الجسم انتقال بسيط ــ ولكنه نافع ــ فإنه ينتقل إلى النسل، ويتحسن بالانتقالات المتتالية، ولكن كل المخلوقات ذات الباصرة يكون عضو البصر فيها كاملاً ولا يبدو عليه أنه قطع أي مرحلة تطور متوسطة.

أما فيما يتعلق بالكائنات الحية فإنها تثير أمام القائلين بالتطور مشكلات كثيرة... فبعض الكائنات ذات الخلية الواحدة مثل الاميب؛ فإنها تتكاثر من غير لقاح جنسي بل إنها تنقسم على نفسها وتشكل كائنات مثلها. فإذا كان الانتاج من غير لقاح جنسي ناجح، وهو ناجح حقاً، على اعتبار أنه يوجد حتى اليوم كائنات تتكاثر بهذه الطريقة فلماذا توجد مخلوقات تتكاثر بالتلاقح؟ وكيف تستطيع أعضاء تناسل كل من الذكر والأنثى، أن تتطور تدريجياً وبنسبة واحدة مع أنها تكون غير نافعة قبل تكونها النهائي؟

وإذا كانت غدد أثداء النساء، وغدد ضروع الحيوانات قد نمت بتطور بطيء فكيف استطاعت هذه الإناث إرضاع أطفالها قبل أن يكتمل نمو عدد الأثداء والضروع؟ وإذا كانت لديها وسيلة أخرى لتغذية أطفالها فلماذا كانت بحاجة إلى إنماء الأثداء والضروع؟ وإذا كانت الغدد الثديية والضرعية قد ظهرت لأنها كانت تمثل طريقة رفيعة لتغذية الأطفال فلماذا يوجد، حتى اليوم، حيوانات تغذي أطفالها بطرق أخرى، وأن هذه الحيوانات تعيش كما تعيش ذات الأثداء والضروع؟

إن تعقيد أجهزة الكائنات ذات الخلايا الكثيرة دعا العالم التطوري «كارتر» إلى أن يقول في كتابه: «تطور الحيوانات»[1] ما يلي: «لا يستطيع إنسان أن

(١) G. S. Carter. — Animal Evolution

يتأمل في جسم كثير التعقيد لحشرة أو لذات فقار دون أن يدرك بأن نظرياتنا البسيطة نسبياً غير قادرة على أن تفسر بصورة كاملة أصل مثل هذا التعقيد».

لا بد لكل مخلوق من خالق

إن كل المعلومات والتجارب التي اكتسبها الانسان تدل على أنه كلما كانت الآلة أكثر تعقيداً كان صانعها أكثر عبقرية. . هل يخطر في بالنا حينما نزور متحفاً ونرى رأس سهم قديم أن نظن بأن هذه الرأس هي نتيجة تطور أو أن نعترف بأنها من صنع صانع؟ من يجرؤ أن يدعي بأن القمر الصناعي، الذي يصف لنا مداراً حول الأرض، هو حصيلة قطع من المعدن اجتمعت بطريق المصادفة وتحولت إلى غرفة فضائية، وان هذه الغرفة وضعت نفسها، بطريق المصادفة أيضاً، في رأس صاروخ يحمل وقوداً، وأن كل ذلك كان نتيجة تطور، وأن هذه المجموعة وضعت نفسها في مجال فضائي من غير تدخل أي عقل مدبر؟ إن العاقل يعترف أنه لا بد لهذه الآلة من صانع! ثم من يخطر بباله أن يقول: بأن معادلة رياضية عويصة هي حصيلة تطور، وليست حصيلة ذكاء رياضي كبير؟ هل نستطيع أن ندعي بأن هذه المعادلة هي حصيلة التقاء القلم بالورقة؟ فماذا نقول، إذن، بالدقة الرياضية اللامتناهية التي نراها في كل المخلوقات؟ لقد كتب «ديراك»[١] أستاذ الرياضيات في جامعة كمبردج في عدد (أيار) مايو ١٩٦٣ من مجلة العلوم الأمريكية يقول:

«يبدو أنه من أحد مظاهر الكون الرئيسية أن تكون القوانين الفيزيائية قابلة للتعريف بعبارات رياضية ذات جمال فائق وقوة عظيمة توجبها معرفة الرياضيات معرفة عميقة لكي يمكن فهمها فهمًا سليمًا ونستطيع أن نختصر الوضع بأن نقول: إن الله رياضي عظيم، وأنه عمد إلى رياضيات عالية لصنع هذا الكون».

هذا، وقد أثبت العالم الانكليزي «نيوتن»[٢]، بطرقة فذة، أنه لا بد

(١) P. Dirac.

(٢) Isaac Newton.

لكل مخلوق من خالق، وذلك بأن صنع على يدي ميكانيكي حاذق مصغراً للنظام الشمسي، وقد ظهرت فيه كواكب ممثلة بكرات تحركها يد يسيرها نظام معقد يقوم على مسننات وأحزمة. واتفق أن زار نيوتن أحد أصدقاء العلماء ـ وكان ملحداً ـ وقد روي ما دار بينهما على الشكل التالي:

«في يوم من الأيام بينما كان نيوتن جالساً في مكتبه يقرأ ومصغر النظام الشمسي على طاولة إلى جانبه، إذ دخل عليه أحد أصدقائه الملحدين ـ وكان الرجل عالماً ـ فتعرف فوراً على النظام الشمسي واقترب منه، وأخذ يحرك اليد المحركة، ويراقب بإعجاب الاجرام السماوية تتحرك في محاورها وكلها تجري بمقدار، فتراجع قليلاً وقال: ما أعجب هذه الآلة الميكانيكية! فمن الذي صنعها؟ فرد عليه نيوتن من غير أن يتحرك من مقعده قائلاً: لا أحد. فالتفت الملحد إلى نيوتن وقال: إنك ولا شك لم تفهم سؤالي. فقد سألتك من صنعها؟ فرفع نيوتن، هذه المرة، رأسه إلى صديقه وقال له مؤكداً بكل صراحة ورصانة: إن عناصر هذه الآلة قد اجتمعت من نفسها على هذه الصورة العجيبة. فاستغرب الملحد هذا القول وقال لنيوتن: أتظنني أحمق حتى أقبل هذا القول؟ إنها ولا شك من صنع إنسان لا بل إنسان عبقري وأود أن أعرف اسمه.

وضع نيوتن الكتاب الذي كان يقرأه، مد يديه ونهض واقفاً ووضع يده على كتف صديقه وقال: ليست هذه الآلة إلا تقليداً لنظام أعظم تعرف أنت قوانينه. فإذا كنت لا أستطيع أن أقنعك بأن هذه الآلة ظهرت من غير صانع، فكيف تزعم أن ليس للنظام الشمسي الحقيقي خالق، بينما لم يفعل صانع هذه الآلة إلا أنه قلد الأصل. فقل لي بربك بأي منطق وصلت إلى قناعتك؟».

وهكذا فقد توصل نيوتن إلى إقناع صديقه بأن لا بد لكل مخلوق من خالق وأضاف قائلاً: ويكفي أن ننظر إلى ما حولنا لكي نصل إلى هذه النتيجة. إجلس في مقعدك واسأل نفسك: كم هي الاشياء التي تحيط بي وما هي التي ظهرت بنتيجة التطور وما هي التي صنعها صانع؟ هل مكتبي هو حصيلة تطور أو هو صنع صانع؟ وكذلك مصباحي، وكراسي، والمدفأة، والطاولة والسجادة،

الفصل الرابع

ماذا تكشف المستحاثات

والجدران... لا بل والبناء الذي نحن فيه؟ كل هذه الاشياء مصنوعة ولها صانع. وأنت ذاتك أتيت من أم وأب. فبأي منطق يمكن الادعاء بأن هذه الكائنات الحية التي هي أدق كثيراً من هذه الأشياء غير الحية قد ظهرت من غير صانع؟ إن النتيجة المنطقية التي تفرض نفسها، بعد الأخذ بعين الاعتبار بكل هذه الحقائق، هي التي استنتجها الكيماوي الشهير «جون كلوفر»[1] حيث قال في كتابه ـ حقيقة الله في الكون الواسع ـ ما يلي:

«ان المراحل العضوية والبيوكيماوية التي تعمل في الجهاز الحيواني هي من التعقيد بحيث لا يكون من العجب أن تتعرض، بين حين وحين، إلى خلل في عملها أو إلى أمراض، بل العجب أن تظل آلة معقدة، بهذا الشكل تعمل بانتظام... إن أبسط الآلات التي يصنعها إنسان لها صانع فكيف أستطيع أن أتصور نظاماً أكثر تعقيداً بعشرة آلاف مرة يمكن أن يصنع نفسه بنفسه».

إن بعض الناس على الرغم من أنهم يقبلون هذه النتائج المنطقية؛ يصرون على القول بالتطور، وسيشهدون عليه بالمستحاثات التي وجدت في قشرة الأرض، ولكن هل تقوم هذه الحطام دليلاً على التطور؟

---

(١) John Clover Monsma — the Evidence of God in Expanding Universe.

ماذا تكشف المستحاثات

إذا كانت الكائنات ذات الخلية الواحدة قد تحولت، في الماضي، إلى كائنات عليا في الحياة الحيوانية والنباتية؛ فمن الواجب أن نجد أدلة على هذا التطور في وثائق «علم المستحاثات»، ولا بد أن تكون الكائنات ذات الأشكال المتوسطة البدائية قد تركت آثاراً متحجرة، أو بصمات، أو أدلة أخرى في طبقات الأرض. فماذا تكشف لنا المستحاثات؟

لقد أبدى «شارل دارون» منذ أكثر من مئة سنة، اضطرابه من شهادات المستحاثات؛ حيث قال في كتابه: (أصل الأنواع) ما يلي:

«هناك صعوبة أخرى، ولكنها أخطر شأناً... وأعني بذلك الظهور المفاجىء، لأنواع تعود إلى التقسيمات الرئيسية لعالم الحيوان، في صخور أقدم المستحاثات التي نعرفها... فإذا كانت نظريتي، في التطور، صادقة فمن الواجب أن تكون فترتها قد انقضت قبل رسب الطبقات الكامبريانية الدنيا، وهو زمن بعيد ولعله أطول من زمن أي فترة من الفترات الواقعة ما بين زمن الكامبريانية وعصرنا الحاضر، وهي الفترة المجهولة التي تكاثرت فيها الكائنات الحية على وجه الأرض... أما لماذا لا نجد مستودعات غنية بالمستحاثات تعود إلى هذه الفترات البدائية التي سبقت فترة الكامبريانيـة؟... فهذا سؤال لا أستطيع الجواب عليه جواباً مقنعاً. وأسباب الصعوبة في الاجابة على ذلك هو عدم وجود طبقات واسعة من المستحاثات تحت طبقات النظام الكامبرياني الأعلى».

وطبقة أرض الفترة الكامبريانية التي أشار إليها «دارون» تعود، بحسب رأي التطوريين، إلى ٦٠٠ مليون سنة. ولم تكن، في حياة دارون، اكتشفت أي وثيقة عن طبقات ما قبل الكامبريانية. فماذا عن أحداث أيامنا هذه بعد أبحاث مكثفة استمرت أكثر من مئة عام؟

لقد نشرت «نيويورك تايمس» في ١٩٦٤/٩/٢٥ مقالاً في تأييد التطور، تعترف فيه بأن تلك الفترة ما زالت محرومة من المستحاثات وتقول:

«إن أكبر لغز في تاريخ الحياة على وجه الأرض هو الظهور الفجائي، قبل ٦٠٠ مليون سنة، لأكثر الأنواع الكبيرة في عالمي النبات والحيوان، وليس لدينا في الواقع شيء يستطيع أن يرينا كيف تكونت هذه الأنواع».

ونجد الاعتراف ذاته في كتاب: (هذا العالم الذي نعيش فيه)[1] إذ يقول: «إن النصف الأول من كتاب عمر الدهر، الذي يبلغ ملياري سنة ينطوي على أوراق بيض ليس فيها ما يدل على شيء».

وقالت «المجلة العلمية الأمريكية» في عدد (آب) اوغست ١٩٦٤ ما يلي:

«إن علماء الأحياء يمرون، أحياناً، ساكتين عن ذكر الظهور المفاجىء والتركيب الكامل لحياة الحيوان بينما هما الصفتان المميزتان للفترة الكامبريانية كما أن الأبحاث الأخيرة التي تمت عن طريق المستحاثات قد دلت على أنه من الصعب التغاضي عن اللغز الذي يطرحه الظهور المفاجىء للكائنات الحية كثيرة الخلايا. . . ولم تكن هذه الكائنات بدائية ولا بسيطة التركيب؛ بل كانت كائنات معقدة التركيب تعود في ظاهرها إلى الأنواع الكبيرة المعروفة في عالم الحيوان، وهي مختلفة بعضها عن البعض الآخر ومصنفة في أيامنا هذه في عداد كثيرة الخلايا. ونحن نعلم، اليوم، أنها كانت في عداد الحيوانات التي تمثل كل أنواع الحيوانات الكبيرة التي تتمتع بهيكل عظمي قابل للتحجر، ومع ذلك فإننا لا نجد أي أثر لهذه الحيوانات قبل الفترة الكامبريانية الدنيا. . . ويمكن، بكل

(١) Lincoln Bernett. Le Monde où Nous Vivons

جدية، وصف ظهور الحيوانات الاقليمية للفترة الكامبريانية الدنيا بأنه ظهور مفاجىء.

واننا لا نستطيع أن نستبعد هذا الحادث بأن نفترض بأن كل الصخور التي كانت قبل الفترة الكامبريانية قد تغيرت هيأتها بفعل الزمن؛ بحيث أنها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بمستحاثات الأجداد كثيرة الخلايا. . . حتى ولو كانت الحيوانات، كثيرة الخلايا، التي سبق وجودها وجود حيوانات الفترة الكامبريانية، من الرخويات التي قلما تحفظ، كان من الواجب ان نجد آثاراً أكثر انطباعاً في طبقات فترة ما قبل الكامبريانية. ولا نستطيع أن نقول بأننا لم نجد مستحاثات فترة ما قبل الكامبريانية لأننا قصرنا في البحث، بل إننا قد بحثنا كثيراً ولم نجد».

واستنتجت «مجلة التاريخ الطبيعي»[1] عدد (تشرين الأول) اكتوبر ١٩٥٩، النتيجة ذاتها في مقال نشرته تحت عنوان: (دارون وشهادة المستحاثات) قالت:

«منذ بدء الفترة الكامبريانية وخلال الفترات الجيولوجية الأخرى التي تلتها؛ نجد في كل طبقة كثيراً من آثار الحياة الحيوانية. حتى أننا في فترة تكوّن الكامبريانية الدنيا نجد كثيراً من ذوات الفقار البحرية المتنوعة. ونجد تحتها طبقات غليظة من الرسوبات الصخرية حيث يتوقع وجود أجداد لأشكال الكامبريانية، ومع ذلك فإننا لم نجد. وهذه الطبقات الأكثر قدماً خالية من آثار الحياة، بحيث نستطيع القول بإخلاص: بأن بداية الخلق كانت في بداية الفترة الكامبريانية».

ويقول «دارون»: «أما لماذا لم نجد مستودعات غنية بالمستحاثات عائدة إلى الفترات البدائية التي سبقت الفترة الكامبريانية فهذا سؤال لا أستطيع الرد عليه بجواب مقنع».

(١) Natural History.

فكيف يمكن تفسير هذا الأمر؟ أما القائلون بالتطور، الذين سبق ذكرهم، والذين قبلوا هذا الأمر على أنه حقيقة واقعة فقد أضافوا إلى ذلك الملاحظة الغريبة التالية: حيث قالوا: «إن هذا الاعتراض قائم على أدلة سلبية فقط. وقد دلت التجارب على أن لا قيمة لمثل هذه الأدلة. أو بمعنى آخر: على الرغم من أن هؤلاء التطوريين لم يجدوا أي مستحاثات صادقة يعود تاريخها إلى ما قبل الفترة الكامبريانية، وعلى الرغم من أن النصف الأول، على الأقل، من كتاب عمر الدهر لا يحوي إلا صحائف بيضاً، فإنهم يعتبرون التطور أمراً واقعاً بدعوى أن عدم وجود مستحاثات يشكل دليلاً سلبياً فقط. ومثل هذا القول بعيد جد البعد عن التفكير العلمي، لأن الطريقة العلمية الحقيقية هي استخلاص النتائج من الوقائع الراهنة، فإذا فقدت الوقائع الراهنة وجب إهمال النتائج. ولكن التطوريين يصرون على الاستنتاج متحدين الوقائع. ولا يقبل مثل هذا القول ويعتبره أساساً صلباً لنظرية التطور إلا ساذج!

فماذا تقول أنت، أيها القارىء، لو قال لك بنّاء بأنه وضع أساساً قوياً لبناء ما، ثم علمت أنه لا شيء في الأساس، لا اسمنت ولا حديد ولا خشب ولا أي مادة صلبة أخرى؟ فهل ترضى أنت بأن توصف اعتراضاتك بالأدلة السلبية، لأنك لا تعتبر ما يقولونه أساساً صلباً؟ في الواقع إننا لا نستطيع أن نستبعد الحقائق العلمية في هذا الموضوع، وشهادات المستحاثات تؤيد القول بالخلقة المفاجئة، وليست الخلقة بالتطور التي بدأت بشكل حياة بدائية.

أين هي المخلوقات المتوسطة؟

إن نحو ثلاثة أرباع المراحل التي تخيلها التطوريون لم توجد قط. فماذا كشفت لنا المستحاثات المكتشفة حقاً؟ هل قدمت لنا أدلة على التطور؟ أو هل أن وثائق المستحاثات تحتوي، على الأقل، على المراحل الأخيرة من الربع الأخير من المراحل التي يدعيها التطوريون؟ لنبحث الوقائع:

يقول «شارل دارون» في كتابه: (أصل الأنواع) بشأن المخلوقات المتوسطة ما يلي:

«إذا كانت الأنواع تنحدر من أنواع أخرى بتدرج بطيء وغير محسوس؛ فلماذا لا نجد أشكالاً كثيرة من المخلوقات الانتقالية المتوسطة بين النوعين؟ لماذا لا يوجد شيء في الطبيعة في حالة مشوشة؟ لماذا لكل من الأنواع شكل ووصف محدد؟ لماذا لا نجد، باستمرار، على قشرة الأرض بقايا هذه الأشكال الانتقالية العديدة التي تقضي فرضية التطور وجودها»؟

«إن الأبحاث الجيولوجية لا تقدم لنا السلَّم التدرجي اللامتناهي وغير المحسوس للكائنات التي توسطت الأنواع الحاضرة وأنواع الماضي كما تقتضيه نظريتي».

فكيف يفسر «دارون» هذا الفراغ؟

يقول في الرد على ذلك ما يلي:

«إني أكتفي بالقول هنا: بأن الوثائق التي قدمها علم الجيولوجيا هي من القلة بمكان يفوق التصور».

ثم بعد ذلك يقول: «ولكننا إذا حصرنا بحثنا بكائن واحد غدا من الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا لا نجد سلسلة مترابطة متدرجة من الأشكال التي كان من الواجب أن تربط الأنواع المتشابهة بعضها بالبعض الآخر».

هذا ما قاله «دارون»؛ فهل اختلف الأمر من بعده؟ وهل وجدت في الأحافير الأنواع الانتقالية المتوسطة التي تكوّن السلسلة بين الكائنات الحية الضخمة؟

إليكم ما قاله التطوري الشهير «سمبسون» الاستاذ في «جامعة هارفارد» في كتابه: (عوامل التطور الرئيسية)[1]:

«يعلم علماء المستحاثات، ولا شك، بأن أكثرية الأنواع والأجناس والأسر

(١) George Gaylord Simpson. The Major Features of Evolution

وكل الأصناف الجديدة التي هي فوق مستوى الأسرة انما ظهرت فجأة وأننا لا نجد أي خلق مستمر ومتقدم لأشكال انتقالية».

وقد أشار إلى هذا الأمر الأستاذ «رومر» أستاذ علم الحيوان في جامعة هارفارد في كتابه، علم الوراثة وعلم المستحاثات والتطور[1]، الذي طبعه العلماء التطوريون المشهورون «جبسن وماير وسمبسون» حيث يقول:

«أما فيما يتعلق بالتفسير الفجائي التطوري في الفصيلة الحيوانية فقد يمكن أن تكون مراحله شبيهة تمام الشبه بالداروينية الجديدة تماماً، أي إنها نتيجة تراكم انتقالات متعددة ناتجة عن تأقلم بطيء ولكنه، مع ذلك، تراكم سريع جداً. ومن المؤسف أن تكون الأدلة على ذلك قليلة جداً في وثائق المستحاثات، لأن الأشكال التطورية التي تمثل هذه الظاهرة نادرة جداً... فالحلقات تتقدم حيث تدعو الحاجة إليها، وربما فقدت حلقات بكاملها».

ويقول الاستاذ «طومبسون» في كتابه: (النمو وعلم دراسة الهيئة)[2]، بشأن الحلقات المفقودة ما يلي:

«إن دراسة ثمانين سنة للداروينية التطورية لم تعلمنا كيف أن الطيور انحدرت من الزواحف والثدييات من ذوات الأربع وذوات الأربع والأسماك أو ذوات الفقار من غير الفقريات. ونجد المشكلة ذاتها حتى عند غير الفقريات... والهوة عميقة جداً بين ذوات الفقار وغير الفقريات، بين الدود والمجوفات وبين المجوفات وذوات الخلية الواحدة، بحيث أننا لا نستطيع أن نرى من جانب الهوة الواحدة الجانب الآخر... بل إننا نقطع حاجزاً كلما أردنا أن نمر من أسرة إلى أخرى، ومن جماعة إلى جماعة...

(١) Glenh L. Jepson, Ernest Mayer. — Genetics Paleontology and Evolution

(٢) D'Arcy Thompson. — On Growth and Form

فهناك مبدأ مقرر لعدم الاتصال ملازم لكل تصنيفاتنا... ولذا فمن العبث البحث عن ممر وسط لملء الفراغ».

وقد نجد أنفسنا أمام الأمر الواقع ذاته في ميدان حياة النبات. وقد كتب الاستاذ «نيلسون»[1] أستاذ النباتات في جامعة لاند[2] في كتابه «التنويع الاصطناعي»[3] يقول:

إذا ما فحصنا المجموعات الكبيرة الخاصة بنباتات المستحاثات، فإننا نفاجأ حينما نرى ظهور مجموعات تظهر فجأة بأوقات منتظمة على مدى العصور الجيولوجية وهي مليئة بالأزهار وذات أنواع مختلفة. ويعجب المرء حينما يرى، بعد حقبة من الدهر، لا تقاس بالملايين بل بعشرات الملايين من السنين، اندثار هذه الأزهار فجأة كما ظهرت. وهي خلال حياتها لا تتغير في أشكال انتقالية تتصل بالأشكال الرئيسية للحقبة القادمة، بل إن الأشكال الانتقالية المتوسطة معدومة بتاتاً.

وفي جماعة القرد الانسان الموجود حالاً والذي من المفترض أن يكون أقرب الحيوانات إلينا لا نجد أي نوع وسيط بيننا وبينه، ولا نجد أي قرد كبير يشبه الانسان، وكذلك لا يوجد بين الحيوانات الحية حالاً أي حيوان يمثل الشكل الوسيط، ويرينا أصل القرد الانسان، ولا نجد أيضاً في المستحاثات واحداً من أجداد الحيوان المفترض أنه قرد إنسان!

وقد جاء، بهذا الصدد، في كتاب: (الانسان الأول)[4] المطبوع بالافرنسية سنة ١٩٦٦ ما يلي:

«من المؤسف أنه لا يوجد لدينا إلاّ وثائق غير تامة من المستحاثات عن

(١) Heribert Nilsson.

(٢) Lund.

(٣) Synthetic Speciation.

(٤) Primates.

أصل القرد الانسان ولا نعلم في أي وقت ولا في أي مكان بدأ شكل الانسان يختلف عن شكل القرد».

ومع ذلك فقد وجد من ادعى بأن الفرس، على الأقل، هو المثال الكلاسيكي للتطور الذي تؤيده الأشكال المتوسطة في المستحاثات.

ويقدم أنصار التطور الاوبيوس[1]، وهو حيوان صغير بحجم الثعلب، على أنه نقطة البداية لمجموعة من المستحاثات المتدرجة في الكبر حتى غدت بحجم الفرس الحالي. بيد أن المستحاثات لا تؤيد قط هذا التصنيف في مجموعة متطورة. فقد وجد في طبقة جيولوجية واحدة نوعان وأحياناً ثلاثة أنواع من الخيول وبعضها وجدت في أماكن بعيد أحدها عن الآخر.

وقد كتبت «مجلة العلوم» في عددها الصادر في ١٩٥١/٨/٢٥، بصدد تطور الفرس تحت عنوان: (ليس الأوبيوس الصغير جد الفرس المباشر) تقول:

«إن شجرة نسب الفرس لا توافق الشجرة التي وضعها العلماء. ففي أحد اجتماعات «الجمعية البريطانية لتقدم العلوم» الذي عقد في اندنبرغ صرح الاستاذ «ويستول»[2] العالم الجيولوجي والاستاذ في جامعة درهام[3] بأن شجرة نسب الحصان أصبحت كلاسيكية عند علماء التطور، إذ يقولون بأن الحصان بدأ في شكل الاوبيوس وبحجم الكلب، ثم أخذ يصعد في خط مستقيم حتى غدا الفرس الذي نراه اليوم. وهذا القول خطأ محض».

وكتب العالم التطوري «لوكونت»[4] في كتابه: (الانسان ومصيره) بصدد مجموعة المستحاثات التي من المفروض أن تكون همزة الوصل بين الاوبيوس والفرس الحالي يقول:

---

(١) Eohippus.
(٢) T. S. Westol.
(٣) Durham في انكلترا.
(٤) Le Comte du Noüy في كتابه L'Homme et sa Destinée.

«يبدو أن كل واحد من هذه الوسطاء قد ظهر فجأة ولم يستطع العلماء حتى اليوم إعادة تركيب الهياكل العظمية للحيوانات التي تربط بين هذه الوسطاء، وذلك بسبب عدم وجود مستحاثات... والأشكال المعروفة ما زالت متباعدة مثل أعمدة جسر متهدم... ولعل الاتصال الذي نتحدث عنه لن يتحقق قط في عالم الواقع».

فأين توجد، إذن، كل الأشكال الانتقالية أو الحلقات المتوسطة في سلسلة التطور؟ أفي وثائق المستحاثات؟ أو بين الكائنات الحية التي لا تزال موجودة في أيامنا هذه؟ لماذا نصطدم دوماً بالعذر ذاته وهو: أن أشكال الكائنات التي كونت الصلة بين المجموعات الكبيرة للنباتات والحيوانات مفقودة؟ ولماذا المجموعات الكبيرة ذوات التركيب المعقد تظهر، دوماً، فجأة منفصلة، عن المجموعات الأخرى، بفجوة هيكلية؟ لماذا تكون الأعضاء السابقة واللاحقة مثل العيون والاجنحة وغيرها تكتشف دوماً وهي نامية نمواً تاماً؟ فإذا كانت نظرية التطور صادقة كان من الواجب أن تمر جميع الأعضاء، من داخلية وخارجية، بمراحل عديدة من النمو. ولكننا لم نجد قط مثل هذه الأشكال الانتقالية.

إن هذه الحقيقة الصارخة حركت المتطورين فكتبت «مجلة العلوم» في ١٩٤٤/١٢/٩، بمناسبة ظهور كتاب: (أصل الفقاريات)[1] للاستاذ «بيريل» تقول:

لقد ختم الاستاذ «بيريل» كتابه بهذه الجملة: «قد يمكن ألا توجد الدلائل قط وهذا لا يهمنا أبداً لأننا، في هذا البحث، نغوص في عالم الاحلام». ويعلق الاستاذ «سمبسون» على ذلك بقوله: «لعل هذه الكلمة هي الأخيرة عن (القلبيات)[2] على اعتبار أنها جدود الفقاريات. ولكن من هم جدود القلبيات؟ إننا نجهل ذلك وحتى أننا لم نعد نحلم بها منذ ٦٠ سنة.

فإذا كان الانقلاب من شكل إلى شكل آخر أمراً واقعاً كان من الواجب أن

---

(١) N. J. Berrill. — L'Origine des Vertébrés
(٢) هي حيوانات كانت بشكل القلب وتسمى: Cordés.

نرى آلافاً لا بل ملايين الأشكال المتحولة في سلسلة متصلة من حلقات متتابعة بلا انقطاع. فعدم وجود هذه الأشكال الوسيطة في المستحاثات وفي الكائنات الحية الموجودة حالاً يثبت أن هناك سلسلة خيالية لا غير».

وناهيكم عن أن تقدم لنا الأحفار أشكالاً وسيطة فإنها، على العكس، تعرض علينا دوماً مجموعات نباتات وحيوانات مختلفة اختلافاً تاماً. فلماذا شهادات الأحفار تؤيد هذا الواقع؟ ولماذا هذه الهوة القائمة، على الدوام، بين مختلف مجموعات النباتات والحيوانات؟

الفصل الخامس

القانون الأساسي لعالم الأحياء

القانون الأساسي لعالم الأحياء

لعالم الأحياء قانون لا تستطيع الكائنات تجاوزه وقد أكدته العلوم تأكيداً قاطعاً، وكتبت «مجلة العلوم الامريكية» في عدد (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٦، بهذا الصدد، تقول: «تتمثل الحياة في أشكال لا عداد لها، ونسل كل شكل من هذه الأشكال مثله، فالخنازير تلد خنازير، والحمير تلد حميراً، والسنديانة تظل سنديانة جيلاً بعد جيل.

وتأكيداً لهذا القانون فقد وجد العلم جماعات من الحيوانات وأخرى من النباتات، وليس بينها وسيط، بل كل كائن في كل جماعة يستطيع أن يتكاثر ولأن يلد أبناء من جنسه، ولكنه لا يستطيع أن ينسل إذا تلاقح مع كائن من غير جنسه. وقد ثبت علمياً بأن الأفراد التي يكون تلاقحها مثمراً تنتج نوعاً واحداً مثلها، ومجموعة الأنواع تشكل جنساً، ومجموعة الأجناس تشكل أسرة. وعلى سبيل المثال نقول: إن أسرة السنوريات يدخل فيها فيما يدخل النمر والأسد والهر وغيرها، وهي أنواع كثيرة تنتمي إلى جنس واحد. وأسرة السنوريات تضم أيضاً جنس (أوس)[1] الذي منه الذئب، وفيما وراء الأسرة الصنف والطبقة والمتعلقات. وليس هناك من كائنات انتقالية بين الكائنات الموجودة في أيامنا هذه.

وقد دلت الأبحاث الجدية التي استمرت قرناً من الزمن، في ميدان

(١) حيوان مفترس يشبه الفهد.

التصنيف، على أن كل ما يشاهد من شكل جديد هو ليس، في الواقع، جديداً بل هو فرد من جماعة ظهرت داخل نوع من الأنواع الكبيرة.

ولإثبات ذلك فلنأخذ الأسرة مثالاً، فكل فرد ينتسب إلى الأسرة السنورية، سواء ما كان منها في المستحاثات أو كان حياً فإنه ظل سنوراً. والأسرة تضم أنواعاً كثيرة، فالأسد والنمر والفهد وأوس والهر هي أنواع مختلفة ولكنها كلها من الأسرة السنورية. ومثل الأسرة السنورية الأسرة الكلبية التي تضم أنواعاً كثيرة مثل: الكلب وابن آوى والذئب والثعلب وغيرها.

ومن هذا يبدو بأن اختلاف القد والهيئة والشكل واللون، الذي نلاحظه في أبناء الأسرة الواحدة لا يدل على تطور عضوي، بل يدل على أنها أنواع مختلفة لجماعة كبيرة. وليس هناك أدنى دليل على أن الأنواع الكبيرة هي من نسل أجداد مشتركة كما تدعي نظرية التطور، لأن تلاقح الأنواع المختلفة لا يكون مثمراً.

وهناك حدود بين الأسر والأجناس وحتى بين الأنواع. وقد كتب، بهذا الصدد، الأستاذ «دوبز هنسكي» في كتابه «الوراثة وأصل الأنواع» يقول:

«إنه لم يوجد قط فرد من الأسرة السنورية لا يمكن تصنيفه سواء أكان من نوع الهررة المنزلية أم من نوع الأسود. إن هذين النوعين مختلفان بسبب عدم وجود وسيط بينهما، ولذا فإننا نستطيع التأكيد، من غير أن نخشى الغلط، بأن أي هر يختلف عن أي أسد.

وما قد ثبت بشأن نوعي الهررة والأسود فهو ثابت أيضاً بين أنواع كثيرة أخرى.

وكما توجد جماعات مختلفة بين الحيوانات، كذلك توجد جماعات مختلفة بين النباتات وبين الكائنات ذوات الهياكل البسيطة؛ كما بين ذوات الهياكل المعقدة. إن تكوين الجماعات المختلفة يكاد يكون ظاهرة عالمية بحيث يمكن اعتباره الصفة الرئيسية للاختلافات العضوية. ومن هذا يبدو بأن الاميب يظل اميباً، والذبابة تظل ذبابة، والقرد يظل قرداً وهلم جرا. وهذه حقائق علمية ثابتة.

وقد كتب العالم التطوري الشهير وأستاذ علم الحيوان «غولد سميث» في كتابه: (الأساس المادي للتطور)[١] يقول:

«إن الحقائق المعلومة لدينا لا تعطينا أي معلومات عن أصل الأنواع الموجودة، ناهيكم عن الأنواع العليا»، ويضيف قائلاً: «ولا يخرج النوع عن حدوده، وحدوده مفصولة عن حدود النوع المشابه له بحواجز لا يمكن تخطيها وهي العقم.

الأنغال

يقول كتاب «علم الأحياء اليوم»: «باستطاعة نوعين مختلفين ــ ولكنهما من جنس واحد ــ أن يتلاقحا بغية جمع أحسن صفات النوعين في واحد. ويكون النغل أقوى من أبويه جسماً وقد يكون عقيماً ولا بد من تكرار التلاقح».

يجب أن يلاحظ بأن النغل يأتي من كائنات حية متقاربة إرثياً، بحيث يمكن تصنيفها في نوع واحد، وكثير من النغولة تكون عقيمة، وإذا تركت لنفسها فإنها لا تسعى إلى الانتاج، وأما ما كان خصيباً منها؛ فإنه إذا استمر بالتلاقح فإنه ينتهي عند حدود النغولة أي العقم. ولذا فإننا نشاهد في النوع الواحد أنواعاً مختلفة محدودة؛ بينما يفترض ألا تكون محدودة. ومثالاً على انتهاء التلاقح عند حدود معينة نأخذ الوزة الصفراء فقد زيد محصولها خلال بضع سنين زيادة خيالية بفضل التلاقح، ثم وصلت إلى حد لم يعد بالامكان زيادة إنتاجها إذا استنفدت كل عوامل التحسين. ومن الجدير بالملاحظة هو أن ما حصل من التلاقح كان ذرة صفراء ولم يؤثر التلاقح فيها فيحولها إلى نبات آخر، بل إن التحسن حدث في الذرة نفسها. وهذا ينطبق على عالم الحيوان وقد حبطت كل الجهود التي بذلت من أجل الاستمرار في التلاقح إلى ما لا نهاية؛ ولكنها اصطدمت بحواجز العقم التي لا يمكن اجتيازها. إن هذا الحاجز الذي لا يخترق هو الذي يحدد الاختلاف بين الأنواع الكبيرة.

(١) Richard. B. Goldschmidt. — The Material Basis of Evolution

التأقلم

إن بعض أنواع النباتات والحيوانات تتأقلم مع حالات مختلفة؛ مثال ذلك تغيّر الجو. ولكن هل هذا يثبت التطور؟ كلا، وذلك لأن هذه النباتات والحيوانات لم تكن من قبل غير متأقلمة ثم غدت متأقلمة، بل هي تتمتع في تكوينها بقابلية التأقلم مع حالات البيئة التي تعيش فيها. فالصبّار مثلاً لم يتحول من نبات آخر وغدا صباراً بتأثير البيئة الجافة بل خلق كذلك. هذا، مع العلم أن بعض الصفات قد تزداد قوة إذا تعرضت لتغيير مناخي مفاجىء ولكن هذه القدرة على التأقلم موجودة عند الأشخاص ولكن في حالة بطيئة.

هل بالتطور أصبح الدب الأبيض حيواناً من حيوانات القطب الشمالي؟ كلا. بل إنه يستطيع أن يعيش في مناطق معتدلة كما يثبت ذلك وجوده في عدد كثير من حدائق الحيوانات في كل العالم. ولكن دب القطب أفضل تجهيزاً من غيره للتأقلم مع جو القطب. وهكذا شأن جميع الحيوانات والنباتات التي يبدو أنها تأقلمت مع محيطها.

وقال الاستاذ «دوبز هنسكي» بصدد قابلية التأقلم، في كتابه: (الوراثة وأصل الأنواع) ما يلي:

«بعد أن أدخل العصفور الدوري الانكليزي إلى الولايات المتحدة الأمريكية تحول بصورة واضحة وتأقلم مع بيئة منزله الجديد. فكبر حجمه واختلفت أفراده، وتحول إلى عرق محلي جديد.

فالعصفور الدوري الانكليزي غدا أكبر حجمًا في الولايات المتحدة الأمريكية، فماذا يستنتج من ذلك؟ يستنتج، بكل بساطة، أن هذا النوع من العصافير يتمتع بقابلية التأقلم البطيء ولكن هذا العصفور الدوري يظل دورياً ولم يتحول إلى نوع آخر، مما لا يمكن أن يحدث قط. إن التطوريين يخلطون بين التحول وبين قابلية التأقلم».

أما الاستاذ «بير» فإنه يذكر العصفور النقار كدليل على التطور حيث يقول:

«للعصفور النقار، في كل رجل، مخلبان يتجهان إلى الخلف يمكنانه من تثبيت نفسه على قشرة الشجرة، وله أيضاً ذنب من ريش قوي وقاس يشكل نقطة ارتكاز قوية، وله منقار مستقيم وطويل يمكنه من حفر الخشب، وله لسان طويل جداً يمده فيلتقط الديدان من داخل الخشب... وقد حصل هذا العصفور على كل هذه الصفات خلال تطوره».

ولكن كيف استطاع هذا النقار أن يعيش قبل أن تكون له هذه المخالب المتجهة إلى الخلف، وقبل أن يكون منقاره طويلاً، ولسانه ممطوطاً؟ فإذا كان قد استطاع أن يعيش برجلين غير هاتين، وبمنقار أقصر، وبلسان أضمر مثل غيره من الطيور؛ فلماذا احتاج إلى صفات أخرى؟ وإذا كان ما حدث له كان لازماً لكي يستطيع العيش في محيط مكتظ، فكيف استطاع غيره من الطيور ذوات المناقير القصيرة أن تعيش؟ إن وجود طيور من أنواع مختلفة تبحث عن غذائها بطرق مختلفة وتعيش جنباً إلى جنب، يثبت بأنها تتمتع ببعض الصفات والمؤهلات للتأقلم في نطاق حدود معينة مع البيئة التي تعيش فيها وليس هذا بدليل على تطور تدريجي.

وإذا كان نوع غذاء بعض الأنواع قد ساعدها على أن تستمر في الحياة بصورة أفضل من غيرها، كما يقول التطوريون، فماذا يقولون بالفرس والبقرة اللتين ترعيان في البراري جنباً إلى جنب؟ ولماذا أعطى التطور الفرس قواطع عليا وحرم البقرة منها؟ وبموجب النظرية القائلة باستمرار الحياة لمن كان أقدر على التأقلم نتساءل: كيف استطاع هذان النوعان أن يعيشا في وسط واحد وأحدهما له هذه القواطع والثاني محروم منها؟

وهناك مثال آخر على الخلط بين التطور وقابلية التأقلم وهو الذباب الذي يتعرض لمبيد الحشرات، ففي وقت ما بدا أن هذه المبيدات ذات أثر فعال عظيم إذ أنها كانت تقتل كل ذباب تصيبه ولكن بعض الذبابات استطاعت أن تقاوم

هذا المبيد ومع ذلك ظلت ذباباً. فهذه ليست بظاهرة تطورية بل هي قابلية بعض الذبابات على مقاومة المبيد.

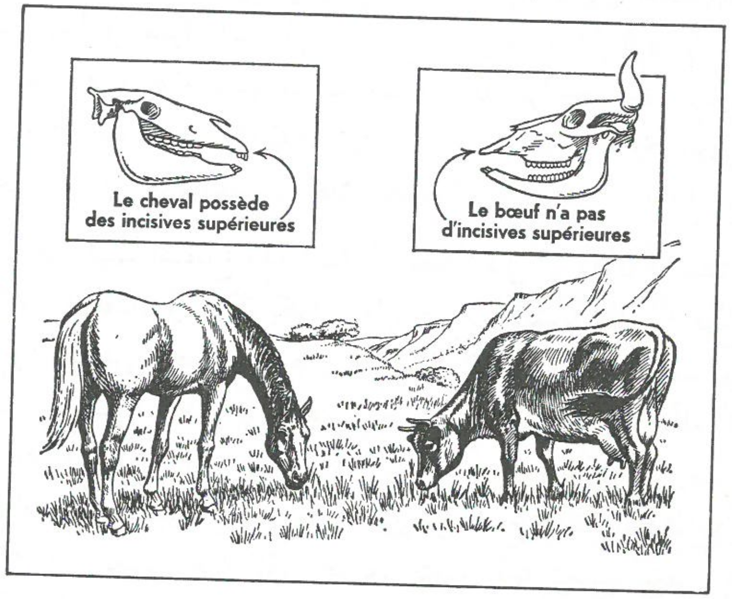

ومما لا شك فيه أن قابلية التأقلم عند بعض الكائنات الحية تستطيع أن تغير شكلها، ولكن هذا التغير لا يؤدي إلى إيجاد نوع جديد حتى ولو على المدى الطويل.

وكثيراً ما يقدم دعاة التطور نوعاً من الفراش يكثر في الجزر البريطانية ويقولون: إن هذا الفراش غدا خلال مئة السنة الماضية بلون ضارب إلى السواد لكي يندمج في المحيط الانكليزي الصناعي الذي غدا أسود، وبذلك تحمي نفسها من الطيور. ولكن هل ما حدث للفراش هو نوع من التطور العضوي؟ وهل انقلبت هذه الفراشة إلى نوع آخر؟ وهل أصبحت في تكوينها العضوي أشد تعقيداً أو أنها ظلت كما كانت؟

إنه يكفي أن نقارن بين فراشتين الواحدة من الجيل القديم والأخرى من الجيل الجديد لكي ندرك بأن ما حدث ليس تطوراً، وأن الفراشة السوداء هي

من نوع الفراشة البدائية وليس هناك تحول جديد في التكوين العضوي بين النوعين بل ظلتا فراشتين. وبالتالي فهذا التغير البسيط الذي يطرأ على نوع بدائي يسمونه خطأً تطوراً عضوياً وهو ليس كذلك.

الفصل السادس

هل الانتقال يعني إيجاد أشكال جديدة للحياة

هل الانتقال يعني ايجاد أشكال جديدة للحياة

إن نظرية التطور العضوي تدور حول فكرة تقول بأن انتقالات ذات مجال ضيق قد أحدثت تغييرات أدت إلى تبديل شكل كائن حي بشكل آخر. فما هي الحقيقة في هذا الأمر؟ وهل الانتقال يأتي بالأفضل المفيد؟ وهل يخلق أشكال حياة جديدة؟

إن عبارة الانتقال تعني التغيير الارثي في داخل بلازما الخلايا التناسلية، ويؤكد الاستاذ «دوبـز هنسكي» بأن الانتقـال بسبب تغييرات في الجينـات الموروثات واختلافات في الكيان الارثي، وهذه هي العوامل الأولية للتطور. ويقول الاستاذ «شينفيلد» في كتابه: (الانسان الجديد والوراثة)[1] ما يلي:

«نستطيع، في أيامنا هذه تفسير آلية التطور اعتماداً على حالات نادرة لانتقالات نافعة من كل نوع حدثت مرات كثيرة ومتتابعة على فترات طويلة».

لماذا ظهر الانتقال؟ يقول كتاب: (علم الأحياء اليوم) ما يلي: لعل حدوث الانتقال كان بسبب عوامل توجد عادة في البيئة مثل الأشعة الفضائية وغيرها من الاشعاعات الكهربائية، وحالات استقلاب داخل الخلايا أو بالتالي لأخطاء في إعادة انتاج المورثات...

وعلى سؤال: هل يحدث الانتقال كثيراً؟ أجاب كـل من الاستاذين

---

(١) Amram Scheinfeld. — The new Your and Heredity

«والنس ودوبز هنسكي» في كتابهما: (الاشعاعات والمورثات والانسان)(١) بما يلي:

إن الانتقالات في مورث ما هي حالات استثنائية، ومعنى هذا القول أن المورثات تتوالد، عادة، بدقة.

ويؤكد العالم التطوري «وادنكتن» في كتابه: (العلم اليوم)(٢) قائلاً: «تحدث هذه الظاهرة نادراً، ولعلها تحدث مرة في مليون حيوان أو في مليون كائن حيّ».

وجاء في «الموسوعة العالمية الأمريكية» قولها: «يظهر الانتقال نادراً وفي أغلب الحالات لا يظهر المورث المنتقل إلا مرة واحدة في كل مئة ألف جيل على الأقل». وتؤكد الموسوعة في مكان آخر قائلة: «يعتقد الباحثون بأن المورث الانساني يستطيع أن يبقى ثابتاً لا يتغير خلال ٢,٥٠٠,٠٠٠ سنة».

وتضيف الموسوعة المذكورة قائلة: «إن حالات الانتقال تكون ضارة، فبعضها تمنع الخلية التي تكون فيها من أن تنمو وأن تتكاثر». فهل هذا صحيح؟ وهل حق بأن بعض الانتقالات التي تحدث هي مرضية؟

لقد انصرف العلماء خلال العقود الأخيرة إلى إجراء تجارب عديدة لتحديد آلية الانتقال ودرسوا ذبابة الخل، بصورة خاصة، وكان الاستاذ مورغان(٣) من جامعة كولومبيا رائد هذه الأبحاث وعقب عليه فيمن عقبوا الباحث «موللر»(٤) الذي نال سنة ١٩٤٦ جائزة نوبل لأبحاثه في علم الوراثة.

وقد كانت نتائج كل هذه التجارب إيجابية، واعترف «موللر» نفسه قائلاً: «إن أكثر الانتقالات ضارة، ونادر جداً أن يكون الانتقال سلبيًا بحيث أننا

(١) Bruce Wallas, Theodosius Dobthansky. — Radatlon Genes and man

(٢) C. H. Waddington. — Science Today

(٣) T. H. Morgan.

(٤) H. J. Muller.

نستطيع أن نقول أنه كله ضار». واعترف «داود سويل» في كتابه: (آلية التطور) قائلاً: «إن كل (المنتقلين) الذين درست حالاتهم في المختبر بدت عليهم أعراض مرضية ولم تشاهد حالة انتقال نافعة لكائن حي في الحالات الطبيعية». ويعترف «دوبز هنسكي» أيضاً قائلاً: إن جميع حالات الانتقال، سواء ما استحدث منها في المختبر أو ما ظهر بين الناس بحالة طبيعية تسبب تلفاً للحيوية وأمراضاً إرثية وتشويهاً، وان مثل هذا التغيير لا يمكن أن يكون مادة لبناء صرح التطور». ويقول العالم الزراعي المخبري «لاميرتس»(١) عن اختباراته على الورد ما يلي:

في كتابي عن إعطاء «أشعة البيترون» للورد ذكرت الطريقة الفنية التي استعملتها في إحداث انتقال في خمسين زر ورد من نوع الورد المسمى «الملكة اليزابيت» أي أكثر من الانتقالات التي يقال إنهم وجدوها خلال الحياة الماضية كلها وهم يبحثون بين الملايين الكثيرة من شجيرات الورد التي تعطي سنوياً أزراراً من الورد لم تعالج بالأشعة. وقد أنتجت كل هذه الانتقالات الاصطناعية، وبلا استثناء، أنواعاً ذات عيوب أو أنها أضعف من وردة الملكة اليزابيت. ولا تستطيع أن تنافسها لأنها أقل قوة منها وعقيمة جزئياً.

وهناك تقرير نشر في جريدة «نيوزيلاند هيرالد» في ١٩٦٣/١/١٧ يقول:

«سواء أكان الانتقال طبيعياً أم مصطنعاً بالاشعاع فقد دلت التجارب التي أجريت حتى الآن على أن ٩٩٪ من الانتقالات ضارة».

وفي مقال بعنوان: «الإشعاع والانتقال البشري» ظهر في مجلة «العلوم الأمريكية» لشهر (تشرين الثاني) نوفمبر ١٩٥٥ يقول الاستاذ «موللر» ما يلي: «إن ٩٩٪ من حالات الانتقال تأتي بنتائج ضارة وتحدث اضطرابات وظيفية».

ويقول الأستاذ «ميلر» في كتابه «الارتقاء والانحطاط» المطبوع سنة ١٩٦٣ ما يلي:

«إن الصفة النادرة نسبياً لهذه التغييرات الانحرافية أو الانتقالية، وكذلك

(١) W. E. Lammerts.

نتائجها السالبة والمؤدية، على الغالب، إلى القضاء على النمو، تمنعنا من أن ننسب إليها دوراً ذا أهمية في القدرة على تأقلم الجماعات. . . وتجدر الاشارة إلى أن الأهمية الكبيرة التي تنسب في أيامنا هذه إلى انتقال المورثات، على اعتبار أنها من عوامل التطور، إنما تعود، في قسمها الأعظم، إلى الآمال الكاذبة التي أثارتها في بدء اكتشافها».

إن بلازما الإخصاب الكائنة في الكائنات الحية معقدة تعقيداً كبيراً بحيث أن إدخال أي تحوير يدخل عليها يحدث اضطراباً فيها، ومثال ذلك ما حدث سنة ١٩٤٥ في هيروشيما وناكازاكي، فالقنبلتان الذريتان اللتان ألقيتا على هاتين المدينتين قد أحدثتا انتقالات كثيرة، ولم تكن واحدة منها نافعة بحيث نستطيع أن نقدمها كعامل على التطور. فكثير من هذه الانتقالات أحدثت عاهات وتشويهات، أو أنها جلبت الموت، مما دعا الباحثين إلى اتخاذ الحذر الكافي لكي لا يصابوا بالاشعاع.

هذا ويمكن إحداث الانتقال بعوامل كيماوية كما دل على ذلك ما حدث للحوامل اللواتي يستعملن الحبوب المهدئة «تاليدوميد» إذ أنهن ولدن أولاداً مشوهين تشويهاً فظيعاً. . . فمنهم من جاء محروماً من الذراعين أو الساقين؛ مما يدل على أن الانتقال لا يكون في صالح المنتقل.

إن علماء مختصين بالانتقال الكيماوي قد استولدوا أسماكاً بعين واحدة بدل العينين ولكننا هل نستطيع أن نقول بأن هذه الأسماك مجهزة تجهيزاً أصلح لكي تبقى حية؟ كلا، إنها مخلوقات مشوهة وهي أقل احتمالاً للحياة من مثيلاتها العاديات. إن التوأمين السياميين هما نتيجة الانتقال، فهل نستطيع أن نقول بأنهما كانا أكثر حظاً للبقاء على قيد الحياة من الأطفال العاديين؟ لقد استولد مربو الأسماك سمكاً برأسين ولكنهم اعترفوا بأن هذه الأسماك ذات الرأسين لا تعيش طويلاً إذا تركت حرة في الأنهار، لأن الانتقال قد حرمها بعض ما تتمتع به الأسماك العادية.

وقد أحدثت انتقالات كثيرة أخرى عن طريق التجارب؛ فقد استولد

العلماء دجاجاً برقبة عريانة، واستولدوا حشرات هورما إلى حد ما لون عيونها وأجنحتها وأعضاءها الخارجية وغيرها من الأعضاء، ولكن هذه الحشرات المنتقلة لم تنتفع بهذا الانتقال في الحياة الحرة.

لقد وصفوا الانتقالات بأنها حوادث تحدث في آلية الارث في الكائنات الحية. وفي الواقع أنها أكثر شبهاً بأعمال تخريبية تصيب سيارة منها بأعمال بنّاءة. وبديهي أن السيارة التي تتعرض لحادث لا يكون ذلك سبباً في تحسينها بل في خرابها. ولا يسعى المرء بأن يضرب ساعته بالأرض لكي يزيد في دقتها، ولا يضرب آلة بأداة حديدية ليصلحها!

ولا يفيد أبداً التحدث عن تدخل الفترات الطويلة من الزمن التي تعد بملايين السنين. فهذا لا يغير شيئاً من الواقع، بل إن ما كان مستحيلاً فيما مضى هو مستحيل اليوم أيضاً وسيكون مستحيلاً غداً. فإذا كانت حادثة تحدث لسيارة لم تصلح شيئاً في السيارة فيما مضى، فهل لو حدثت ثانية اليوم أو غداً يتغير شيء من الأمر؟ ولو فرضنا أن حادثة واحدة من مئة حادثة نفعت سيارة فما هي نتائج الـ ٩٩ حادثة؟ وما هي نسبة واحد إلى مئة؟ وإذا ظلت السيارة تمشي فإنها تكون دون غيرها من مثيلاتها. وهكذا شأن الكائنات الحية. إذ على المدى البعيد تجعل الانتقالات المرضية أولاد ٩٩ انتقالاً في المئة أقل صلاحاً للحياة حتى ولو عاشوا بضعة أجيال؛ فإنهم يأتون بذرية هزيلة، وعلى كل حال لا يتحولون إلى شكل جديد حيّ.

وهذا يقودنا إلى الوقوف عند أمرهم وهو أنه لا يوجد تجربة واحدة من آلاف التجارب التي أجريت على الانتقالات أنتجت نوعاً جديداً من الحيوان أو النبات، بل يبقى المتنقلون داخل حظيرة نوعهم البدائي. إن الانتقالات الكثيرة التي أجريت على ذبابة الخل لم تولد إلا ذباب خل من نوع أجدادها. إن الانتقال يغير حجم وشكل ولون الذبابة؛ ولكن لم يحدث أن انتقالاً أو انتقالات كثيرة أولدت كائنات جديدة.

حينما نذكر بأن هناك حظاً قليلاً في أن يكون الانتقال نافعاً للكائنات في

كفاحها من أجل البقاء في الحياة، وحينما ندرك بأن تكوين نوع جديد من الكائنات يحتاج إلى آلاف الانقلابات وليس إلى انقلاب واحد، وحينما نأخذ بعين الاعتبار أعداد الأنواع الكثيرة للنباتات والحيوانات، في العالم، لا بد من أن يكون الانسان على جانب عظيم من السذاجة ليتصور بأن كل هذا الكون قد حدث بفعل التطور. ومع ذلك فهذا ما يتعلمه أولادنا اليوم في المدارس وكأنه كلام منزل.

حينما يبحث المرء كل الأمور بحياد وإيجابية يصل إلى النتيجة المنطقية وهي أن: ليس للانتقال أي قيمة تطورية بل هو على الضد يدعو إلى الانحطاط. ومن الجدير بالذكر أن «الموسوعة البريطانية» مع تمسكها بنظرية التطور تعترف بما يلي:

«وعلى الرغم من أن بعض التراكيب وإعادة التنظيمات وتضعيف المورثات قد يمكن أن تأتي بانقلابات كثيرة غير أنه من الصعب على هذه الانقلابات أن تفسر التغييرات الواسعة التي حدثت في التطور العضوي».

الاصطفاء الطبيعي

ليس الانتقال عملية بنّاءة بل هو ظاهرة انتقاص وانحدار وتصغير. فما هو أثر الانتقال، الذي هو الأساس الثاني لنظرية التطور الحديثة، على الاصطفاء الطبيعي؟

يقول الاستاذ «بير» في كتابه: (شارل دارون) ما يلي: «إن التطور تابع للاصطفاء الطبيعي» ويزعم القائلون بالاصطفاء أن الطبيعة تلجأ إلى الانتخاب، وتحتفظ بالانتقال النافع، وتنفي الانتقالات الضارة، وبهذه الصورة يتحول الكائن الحيّ إلى نوع رفيع».

والاعتراض هنا هو: ما دام ٩٩٪ من الانتقالات تكون ضارة فكيف تستطيع الطبيعة أن تنتخب؟ ثم لو فرضنا جدلاً بأن كائناً من الكائنات حصل

على انتقال نافع، (وهذا شيء قليل الاحتمال)، فلا بد لهذا الانتقال من أن تتلوه انتقالات كثيرة ضارة، وفي هذه الحالة إذا تدخلت الطبيعة فإن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تنبذ هذا الكائن المنتقل.

ومن هذا يبدو بأن الاصطفاء الطبيعي مثله مثل الانتقال يعمل في غير صالح التطور.

والاصطفاء الطبيعي الذي يؤدي إلى بقاء الأصلح للحياة على قيد الحياة لا يستطيع أن يأتي بأي جديد. ثم إن بقاء الكائن الحي حياً لا يدل على أن بقاءه كان نتيجة تطور، بل هو نتيجة ظروف خاصة وعمر محتوم، ومثال ذلك: إذا كان لدجاجة ما بضعة فراخ فأكل أحد الطيور الجارحة بعضها، فهل يعد الباقي حياً أكثر تطوراً من الضحايا؟ طبعاً لا، هذا بالإضافة إلى أن الاصطفاء الطبيعي لا يحوّل الفراخ إلى نوع آخر.

إن كثيراً من القائلين بالتحول يعترفون بأن الانقلاب والاصطفاء الطبيعي مجتمعين لا يكفيان لتفسير آلية التطور، وقد كتب التطوري المتعصب «سر جيمس غري»(١) في كتابه: (العلم اليوم) يقول ما يلي:

«كل علماء الأحياء غير مقتنعين بهذا التفسير، ويذهب بعضهم إلى أن هذه الدعوى تشبه إلى حد ما القول بأنه لو اتفق أن اجتمع عدد كافٍ من القردة وضربت على الآلة الكاتبة مدة من الزمن، فإنها لا بد وأن تنتهي بوضع موسوعة، وبدهي أن مثل هذا القول ليس غير قابل للتصور فقط، بل لا يوجد شخص يتمتع بقواه العقلية يحمله على محمل الواقع.

فعلينا إما أن نقبل الاصطفاء الطبيعي كدليل وحيد على آلية التطور، وأن نقبل بأن فيه قسطاً كبيراً من الخيال. وإما أن نعترف بأن الاصطفاء الطبيعي يقوم على أساس الانتقال العرضي الذي يأتي اتفاقاً وأن نعطي للمصادفة دوراً أكثر أهمية في هذا الميدان... وإذا اعتبرنا التطور العضوي نوعاً من «يانصيب»

(١) Hugu Miller — Progrès et Declin.

الطبيعة فإنه يبدو من الغرابة بمكان أن تكون أوراق هذا اليانصيب الرابحة بهذا القدر من الكثرة. ومع هذا فإني أقول: ان ليس هناك ما يثبت أن رأيي خير من غيره من الآراء».

وفي الكتاب ذاته يقول العالم التطوري «وادنغتن» أستاذ علم الوراثة عند الحيوانات في جامعة «ايدنبرغ» بصدد الانتقال والاصطفاء الطبيعي ما يلي:

«إن هذا القول يعدل الزعم بأنك إذا بدأت بكتابة أربعة عشر سطراً متلاحمة باللغة الانكليزية ثم إنك غيرت حرفاً مع الاحتفاظ بالقافية فإنك تنتهي بأن تجد لديك قصيدة أربع عشرية من قصائد شكسبير... إن هذا النوع من المنطق هو انحراف عن جادة الصواب، وأعتقد أنه علينا أن نكون قادرين على صنع ما هو خير من هذا».

وإذا نسينا علينا ألّا ننسى تصريح العالم بالأحياء الكبير والتطوري الشهير «جان روستان» حيث قال:

«إني لا أستطيع أن أفكر قط بأن هفوات الوراثة هذه قد استطاعت، حتى مع مساعدة الاصطفاء الطبيعي، وحتى بفضل المدة الطويلة التي احتاجها تطور الحياة، بأن تصنع هذا العالم الحيّ مع كل ما فيه من ثراء ولطافة في التكوين ومؤهلات عجيبة».

وليس بعجيب أن يقول العالم التطوري الشهير، «سمبسون»[1] في كتابه «جغرافية التطور»[2] المطبوع سنة ١٩٥٦ ما يلي:

«لقد أهمل البحث عن سبب التطور إذ قد أصبح الآن من الثابت أن سبب التطور ليس وحيداً ولا بسيطاً».

فهل بعد هذا يمكن الحديث عن التطور على اعتبار أنه واقع؟ من البدهي

---

(١) George Gaylord Simpson.

(٢) La Geographie de L'Elevotion.

أن هذا غير ممكن. وما الاصطفاء الطبيعي وما يتبعه من بقاء الأصلح للحياة إلا وسيلة لتمييز الأقوياء من الضعفاء. ولكن هذا الاصطفاء لم ينتج من ذاته قط نوعاً من نبات أو حيوان. وبما أن الانتقال لا يستطيع هو أيضاً أن يصنع أشكالاً جديدة حية؛ فإن نظرية التطور ليس لها أية آلية تعرض علينا لتفسير أصل الأنواع.

الفصل السابع

الارث يحفظ الصفة المميزة للأنواع

الارث يحفظ الصفة المميزة للأنواع

يسير العلم في طريقه إلى اكتشاف كنه أسرار إحدى أعجب المواد الوراثية، وهذه المادة توضح إلى حد ما الأسباب التي تجعل الانتقال والاصطفاء الطبيعي وغيرها من العوامل التي يقدمها دعاة التطور، غير قادرة على تكييف شكل مخلوق جديد يولد من مخلوق موجود في الحياة بغير شكل والديه.

إن العلماء يفهمون الآن بشكل أفضل الآلية ذات الدقة اللامتناهية التي تسهر، بلا توقف، على تطبيق قانون الوراثة القاضي بألّا ينتج كل جنس إلا مثل جنسه، وقد اتجهت أبحاثهم إلى المادة المعروفة برمز (ADN) الذي يعني الحمض الريبي النووي فاكتشفوا أن هذا الحمض هو الذي يحمل القانون الوراثي للكائنات الحية.

وهذه المادة تعمل كمنظم مجهري يتمتع بذاكرة، ويختزن عدداً كبيراً من التصاميم ويخرجها في الوقت المناسب لبناء خلايا كل هياكل النباتات والحيوانات. وهذه المادة تركيب كيماوي تصنع منه خلايا الإرث. وقد كتب العالم «بلات»[1]. بهذا الصدد ما يلي:

«إن مادتك الحمضية الشخصية موزعة خلال جسمك في نحو ٦٠,٠٠٠ مليار جزيئة وهذا العدد هو العدد التقريبي الوسطي للخلايا الحية التي يتألف

(١) Rutherford Platt.

منها جسم الانسان البالغ... والشيء المحير هو أن هذا الجزيء بسيط جداً وهو عبارة عن خطين ملتف أحدهما على الآخر بشكل لولبي ومكونين من ذرات مرصوفة بشكل زنجير بمسافات متساوية تربطها أربطة مقرضة كما هي في هذا الشكل.

وهذا الشكل الخيطي لهذا الجزيئي عقلاني، وهو شبيه بشريط الآلة المسجلة إذ أنه يختزن كمية كبيرة من المعلومات اللازمة طول الحياة. وأشرطة (ADN) هي من السكر والفوسفات والأربطة المعترضة هي من مركبات الأزوت... وإن الأوجه المختلفة التي تتعاقب على أشرطة (ADN) هي التي تتحكم بالظروف التي تنمي الجسم. مثلها في ذلك كمثل الضغط البسيط على شريط المسجلة المغناطيسي استجابة للصوت الصادر إليه. ويقول الدكتور «بيدل»(١): لو أردنا أن نعبر بالألفاظ عن أوامر (ADN) المسجلة في خلية إنسانية واحدة لملأنا موسوعة ذات ألف مجلد!

وما دام الـ (ADN) داخل النواة فإنه يظل يعطي الأوامر التي تسبب النمو والهضم وخفقان القلب والأفكار والاحساس منفذاً بذلك البرامج الكامنة فيه منذ أقدم العصور ولا يحدث أي تغيير في هذه البرامج إلا إذا حدث هذا التغيير نتيجة إشعاع أو حادث خارجي أثّر في الخلية»(٢).

ولذا نستطيع أن نشبه الـ (ADN) بقانون أو ببرنامج عملي أو بتسجيل على شريط مغناطيسي، يحفظ التمييز بين أشكال الأنواع الحية الكبيرة. وهذه المادة (ADN) لا تقبل أي تغيير اللهم إلا إذا اضطرت إلى ذلك نتيجة حادث خارجي كالاشعاع. ومع أن الانتقال هو حادث فإنه لا يدخل أي تحسين على الجهاز العضوي، كما سلف وذكرنا، بل إنه، يؤدي إلى النقص، بينما مادة (ADN) العجيبة، على العكس من ذلك، تحفظ الجهاز العضوي ضمن حدود معينة مقررة له في الأصل ولا يستطيع الخروج منها إلا إذا طرأ عليه حادث مشؤوم.

---

(١) Beadle.

(٢) مجلة «ريدر دايجست» عدد (شباط) فبراير ١٩٦٣.

وقد كتبت مجلة «العلوم الأمريكية» في عددها الصادر في (آب) اوغست ١٩٦٣ تقول بهذا الصدد ما يلي:

إذا كان هذا القانون في الواقع عالمياً كما يبدو ذلك من هذه النتائج وغيرها يجب أن نستنتج من ذلك بأنه ظل ثابتاً ومستقراً خلال أطول فترة من فترات التطور العضوي، أو بمعنى آخر أنه لم يخضع للتغيير قط.

أما عن نوع الاختلاف الذي تسمح به مادة (ADN) داخل الأنواع فإن مجلة «العلوم السنوية» لسنة ١٩٦٦ تقول:

لقد قرر علماء الوراثة بأن الصفات الارثية للأنواع إنما تقوم على الأسس الأزوتية لجزيء الـ (ADN)... ويحمل المورث ما لا يقل عن ألف وحدة قادرة على أن تشكل مادة خيطية طويلة والمورثات موصوفة على طول الكروموزوم، وخلية الانسان تحتوي على عشرات آلاف المورثات مجتمعة في ٢٣ زوجاً من الكروموزوم.

وهذه العشرات من الآلاف من المورثات تحوي كل واحدة منها ما لا يقل عن ألف وحدة تستطيع أن تحث ما لا يحصى من التغييرات داخل النوع الواحد، وهذا الأمر يفسر لنا سبب عدم وجود شخصين متشابهين تمام المشابهة في عالم الانسان، على الرغم من أن عدد نفوس العالم اليوم تتجاوز الأربعة مليارات نسمة وعلى الرغم أيضاً من أن هذا التنوع غير محدود فإن كل الناس ينتمون إلى النوع البشري.

إن آلية الـ (ADN) التي تضم تصاميم الأعمال المستقبلية هي جهاز عجيب الصنع، فهل نستطيع حينما نفحص تصميم بناء جسر أو بناية أو آلة ميكانيكية أن ندعي بأنها ظهرت إلى عالم الوجود من تلقاء نفسها من غير صنعة مهندس معمار أو مهندس ميكانيكي؟ فإذا كان هذا غير ممكن فكيف يكون الأمر فيما يتعلق بتصاميم الـ (ADN) التي لا عداد لها والتي هي أكثر تعقيداً؟

إن التركيب الكيماوي لمادة (ADN) الموجودة في كل الأجسام الحية يساعدنا على فهم ظاهرة أخرى كثيراً ما يعمد إليها علماء التطور لإثبات التطور،

وهي تشابه هياكل بعض الأجسام، فقد دل علم التشريح المقابل على تشابه أشكال كثير من المخلوقات الحية فالضب له عضوان أماميان، والطيور لها جناحان، والقردة العليا لها ذراعان، وهكذا الانسان. وإن مقارنة الهياكل العظمية تثبت تشابه البنية. وقد استدل علماء التطور من هذا على أن نوعاً من المخلوقات انبثق من نوع آخر بفضل التطور.

بينما قد دلت دراسة جزيئات الـ (ADN) على أن كل المخلوقات الحية تتركب، بصورة رئيسية، من عناصر كيماوية واحدة، وإليكم ما قاله الاستاذ «بلات» بهذا الصدد:

«إن جزيئات الـ (ADN) تتألف من مركب كيماوي واحد ولها مظهر واحد وحجم واحد، في الانسان والكلب والذبابة وعفن الخبز وورقة العشب وهي، مع ذلك، منسقة بحيث تجعل كل حيّ يختلف عن غيره... فالكلاب تختلف عن الأسماك والطيور، وعفن الخبز يختلف عن أشجار التفاح، والفيلة تختلف عن البعوض».

وعلى اعتبار أن كل الأجسام مركبة من مادة أساسية واحدة وأنها تتغذى بمواد واحدة، وتعيش على كوكب واحد، وتخضع لقوانين طبيعية واحدة، فليس من العجب أن تكون متشابهة كما تكون مختلفة بحيث يعيش بعضها في الهواء، وبعضها على الأرض، وبعضها في الماء... هذا، بالإضافة إلى أن مادة الـ (ADN) العجيبة تسمح بوجود تنوع داخل الأنواع الكبيرة. وهذا ما يفسر الهوة العميقة التي تفصل بين مختلف الأجسام.

الهوة العميقة

إن الهوة التي تفصل الانسان عن الحيوان عميقة جداً ولا سيما من الناحية العقلية. فالانسان وحده من دون سائر المخلوقات يستطيع أن ينمي معلوماته. أما الحيوانات فإنها تستطيع أن تتعلم بعض الأشياء ولكنها لا تستطيع أن تتخطى حداً معلوماً. فالطيور تستطيع أن تصنع الأعشاش، والنحل تصنع الخلايا،

والكاستور يبني السدود، ولكن كل هذه الحيوانات لا تستطيع أن تدخل أي تحسين على صنعها، ولا يوجد حيوان استطاع أن يفيد من معلومات أجداده، بل هذا من امتياز الانسان وحده.

فمن كل الحيوانات التي تعتبر قريبة من الانسان ينظر إلى الشمبانزي على أنه أذكاها ومع ذلك إليكم ما يقوله «دوبز هنسكي» بهذا الصدد:

«إن الشمبانزي هو أرفع جميع الحيوانات ما عدا الانسان من حيث الذاكرة، والتصور، والقدرة على التعلم، ومع ذلك فهناك هوة سحيقة بين مقدرته على التثقف ومقدرة الانسان. فالشمبانزي لا يستطيع أن يتعلم أجوبة رمزية إلا بصعوبة، وأنه لا يتحسن مع العمر والتجربة».

هذا، ولقد حبطت كل المساعي التي بذلت لتثقيف الشمبانزي وغيره من القردة «الانسانية» التي لا تلبث أن تقف عند حد محدود من القدرة على التعلم، وتبقى كما هي لأن مادة (ADN) لا تسمح لها بأن تغدو غير ما هي عليه.

أما فيما يتعلق بالدماغ الانساني فإن الوقائع تدل على أنه حصيلة تطور بطيء، وقد قال الاخصائي بعلم الحيوان «لورن ايزيلي»[1] في «المجلة العلمية الأمريكية» لشهر (كانون الأول) ديسمبر ١٩٥٣: «يبدو أن الدماغ الانساني قد تكوَّن بسرعة عجيبة بالمفهوم الجيولوجي» وقد شبه الدماغ الانساني «بفطر كبير ظهر بصورة سحرية في ليلة واحدة». ثم أضاف قائلاً: «وحينما أتكلم عن ظهور دماغ الانسان بشكل انفجار فإني لا أكون مبالغاً».

وقال العالم التطوري «ميلرش»[2] في كتابه (تاريخ الانسان) بشأن دماغ الانسان ما يلي: «إن دماغ الانسان يختلف عن أدمغة بقية الحيوانات، وهو يشكل حدثاً جديداً في الحياة. وكل الاجناس البشرية تتمتع بهذ الميزة... فأقوام استراليا البدائيين يستطيعون أن يتثقفوا في بحر جيل واحد، وهذا يدل على أن

---

(١) Lorn. C. Eiseley.

(٢) H. Mellersh.

الانسان سواء أكان شرقياً أم غربياً؛ متمدناً أم بدائياً؛ يتمتع بالقدرات العليا ذاتها وهذا ما أقره العلم. فالهوة، إذن، سحيقة بين الانسان والحيوان.

وقد كتبت مجلة «لايف» في عدد ٢٨ (حزيران) يونيو ١٩٦٣ شارحة تفوق الدماغ الانساني فقالت: «لخلايا الدماغ العصبية (Neurons) آلاف الاتصالات بعضها ببعض، وهناك اتصالات إضافية بفضل الكمية العليا من القشرة الدماغية التي تضاعف القدرة أضعافاً لا نهاية لها على استقبال وتحليل المعلومات. وهذه القدرة غير الاعتيادية تجعل الدماغ الانساني بمنزلة رفيعة لا تداني بالنسبة إلى بقية الكائنات الحية»

وقد أشار العالم بالكيمياء الحيوية «إزاك أزيموف»[(١)] إلى إمكانات الدماغ الانساني في مثال كتبه في عدد ٩ (تشرين الأول) اكتوبر ١٩٦٦ من مجلة «نيويورك تايمز» بما يلي:

«لقد قدر العلماء بأن الدماغ الانساني يستوعب، في بحر الحياة، حتى مليون مليار بحث، وأن الدماغ يحوي عشرة مليارات خلية سنجابية أو خلية عصبية». فما هي إمكانات كل خلية عصبية؟ يقول أزيموف:

«إن انساناً سليماً وفي عمر ناضج ويتمتع بذكاء عادي يمتلك أكثر من عشرين مليون جزيء من (ARN)[(٢)] في كل خلية عصبية. وجزيء الـ(ARN) الذي لا يحوي إلا ٢٥ وحدة للتركيب يستطيع أن يأتي بمليون مليار تركيب مختلف... وفي الواقع فإن جزيء الـ(ARN) لا يحوي ٢٥ وحدة فقط بل مئات الوحدات. فمن البدهي، إذن، أن تؤلف الـ(ARN) نظاماً قابلاً للحفظ، قادراً على اختزان كل المعلومات والذكريات التي يحتمل أن يود الانسان حفظها، لا بل هو قادر على اختزان مليار مرة مما يحتاج إلى اختزانه الآن. إن هذه القدرة العظيمة على التذكر وعلى التصنيف وعلى استعمال المعلومات هي قدرة تفوق كثيراً حاجة الانسان الذي تدوم حياته ٧٠ سنة أو أكثر بقليل، وهذا يوحي بأن

(١) Isaac Asimov.

(٢) الـ ARN يسمى بالعربية المنقوص الأوكسيجيني وهو رسول مادة ADN.

الخالق خلق الانسان وأعطاه هذا الدماغ لكي يعيش حياة أبدية، وأما الحيوانات فليس لها هذه القدرة لأنها خلقت لنشاط محدود وحياة محدودة».

نماذج المواد الأساسية للخلق

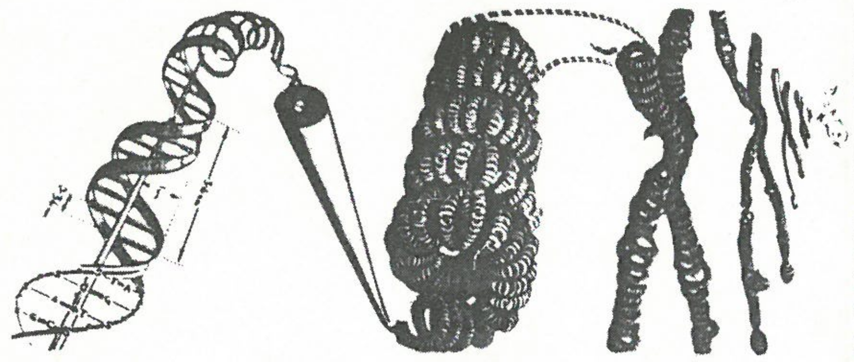

الصبغات: الشيفرة السرية للخلق

وبالتالي فالهوة سحيقة جداً بين الانسان وبين الحيوان، فلو كانت النظرية التطورية صادقة لما كانت هذه الهوة. يقول علماء التطور بوجود مراحل للذكاء ولكننا لا نعلم بوجود ذلك قط. ويزعم هؤلاء العلماء بأن الانسان المعروف باسم «إنسان ما قبل التاريخ» والذي قد انقرض ـ كان يمثل الحلقة الوسطى. فلماذا عاشت الحيوانات الدنيا مثل القردة بينما انقرض إنسان ما قبل التاريخ المفروض فيه أن يكون أرقى من القردة؟ فهل وجد قط إنسان مثل هذا؟!

الفصل الثامن

هل القردة أجدادنا

هل القردة أجدادنا

يقول علماء التطور إن الهوة بين الانسان والحيوان قد ملأها إنسان ما قبل التاريخ أو الانسان القرد الذي لم يوجد قط. وتقول مجلة «العلوم» في عدد (أيار) مايو ١٩٦٥. ما يلي:

«يتصور علماء التطور أجدادنا أجلافاً وبلا ذنب وهم أضخم بقليل من الانسان القرد الذي يعيش في أيامنا هذه. وأنهم كانوا يتمتعون بعضلات وجه متحركة، ولكنهم لم يكونوا شديدي الذكاء. وكانوا يتسلقون الأشجار، ويعيشون، على الأكثر عليها، كما يعيشون على وجه الأرض. وكانوا يستطيعون أن ينتصبوا انتصاباً غير تام كما كانوا يمشون على أربع وعلى رجلين، ويبدو أنهم لم تكن لهم لغة محكية».

وتبعاً لهذا الوصف نجد كتب العالم ومتاحفه مليئة بصور أو بتماثيل تمثل إنسان ما قبل التاريخ بهذا الشكل. ويجد الطلاب أنفسهم، إزاء ذلك، أنهم أعقاب إنسان قردي ذي جسم حيواني. ولكن هل هذه البنوة تقوم على واقع علمي أو أنها قائمة على خيال؟ إليكم ما قاله العالم التطوري «جان روستان» في كتابه (التطور) بالنسبة إلى هذه البنوة المزعومة:

«ما زال البحث جارياً، وسيظل مستمراً وقتاً طويلاً لمعرفة الصلات الحقيقية لكل هذه الأشكال... هل الانسان ينحدر من قرد يشبه الانسان

القردي الذي نعرفه؟ أو أنه ينحدر من قرد دون ذلك، أو من حيوان بدائي لا يستحق حتى اسم القرد؟

لماذا توجد مثل هذه الصعاب؟ للجواب على ذلك تقول مجلة «العلوم» تاريخ ٢٥ (أيار) مايو ما يلي:

«إن إحدى الصعاب الرئيسية تكمن في ندرة وجود جماجم إنسان، في المستحاثات، ذات دلالة حقيقية، وكل ما وجد من جماجم حتى الآن وجد في توابيت كبيرة وكل ما فيها من عظام لا علاقة له بالجمجمة».

وقد أكد هذا الأمر العالم بالانسان القردي الاستاذ «ايزلي» في مقال نشر في مجلة «العلوم الأمريكية» مأخوذ من كتابه «السفرة الواسعة» حيث قال:

«إننا نستطيع أن نغتفر لعلماء الانسان القديم تلمسهم على بعد ملايين السنين لمعرفة الانسان الأول، بينما نحن لا نملك هيكلاً عظمياً تاماً لقرد صغير، ناهيكم عن أن نجد هيكلاً لإنسان قديم... ونحن عالة في معرفتنا بتاريخ تطور الانسان الأول على قليل من العظام وعلى أسنان محطمة. هذا بالإضافة إلى أن المستحاثات آتية من أماكن مختلفة متباعدة بعضها عن البعض الآخر آلاف الكيلومترات، وهي مبعثرة في طول وعرض القارة القديمة. ولذا فإننا ننتهي بهز رؤوسنا مقرين بالعجز... وكأننا في وسط تيه وقد نسينا من أي طريق دخلنا».

وهناك صعوبة ثانية ذكرها «جوليان هوكسله»[١] في كتابه (التطور على اعتبار أنه امتداد)[٢] وهي: «في أكثر الحالات يكون وصف النموذج، الذي يقدمه العلماء الذين يكتشفونه، ينطوي على أهمية خاصة أو يحتل مكاناً مرموقاً في عالم نسبة الانسان المباشر إلى الأجداد في مقابل نسبته إلى القرود... ولكن حظ هذا القول من الواقع قليل... وفي حالة الكلام عن تطور الانسان الأول قلما تكون الاستنتاجات مدعومة بدليل بسبب قلة الوثائق.

---

(١) Julian Huxley.

(٢) Evolution as a Process.

غير أن هذا لا يمنع أن يرى علماء التطور أن الانسان والانسان القردي هما غصنان من فرع قديم مشترك.

فما هي الأدلة التي تقدمها المستحاثات التي تدعم هذه القرابة المشتركة؟

لقد أجابت على هذا السؤال مجلة «العالم الحديث»[١] في عددها المؤرخ في ٢٥ (آذار) مارس ١٩٦٥ بقولها:

إن القرابة، التي لا شك فيها، بين الانسان والانسان القردي تدل بصراحة على أن لهما جداً مشتركاً، ولكن هذا الجد لم يوجد حتى الآن، وقد نجد صعوبة في التعرف عليه.

ويبدو بأن العلماء القائلين بالتحول ـ مع تمسكهم بالقول بوجوب انحدار الانسان من قرد هو جد الانسان القردي أيضاً ـ فإنهم عاجزون عجزاً كاملاً عن أن يقدموا الدليل على ذلك، ولا تقوم استنتاجاتهم على دليل واقع. وتعترف مجلة «ستردي ايفننغ بوست»[٢] في عددها الصادر في ٣ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٦، أنه على الباحثين عن أصل الانسان أن يستمروا في البحث حتى يكتشفوا أصول أجدادهم.

هل هناك أدلة على وجود المراحل الأولية التي يفترض أنها جاءت بعد الجد المشترك؟ يجيب مؤلف كتاب «الانسان الأول»[٣] على هذا السؤال بقوله: «من المؤسف أن تظل، حتى الآن، المرحلة الأولى من التطور الانساني سراً غامضاً». وتقول مجلة «العلوم الأمريكية» لشهر (تشرين الثاني) نوفمبر ١٩٦٦: «إن نوعية نسب أجداد الانسان ما زالت نظرية محضة».

وهناك من يسأل فيما لو صعدنا في استقصاء السلسلة المزعومة الموصلة إلى الانسان الحالي، فهل نجد أدلة أكثر إقناعاً على معرفة جد الانسان؟ وقد جاء

---

(١) New Scientist.

(٢) Saturday Evening Post.

(٣) Primates.

الجواب على ذلك في المؤتمر الذي عقده علماء الانسان القردي، سنة ١٩٦٥، إذ وضعوا تواريخ اعتمدتها مجلة «نيويورك تايمس» المؤرخة في ١١ (نيسان) ابريل ١٩٦٥ ونشرت جدولاً زمنياً مع مقالة جاء فيها: «إن جهلنا بشجرة نسب الانسان ما زالت، حتى اليوم، جهلاً عجيباً... فهناك ما زالت ثغرات» غير أن هذا لم يمنعها من أن تؤكد على أدلة الانسان القردي بقولها: «منذ ما لا يقل عن ثلاثين مليون سنة بدأت تظهر الصفات التي تميز الانسان عن غيره من الحيوانات». ويشير الجدول في المقام الأول إلى حيوان(١) يشبه القرد المسمى غيبون(٢) والذي وجدت بعض عظامه في مصر.

فما هي المرحلة الثانية؟ يقول الجدول الزمني: «إن المرحلة الثانية كانت قبل نحو ١٩ مليون سنة وفيها ظهر حيوان تشبه أسنانه أسنان الانسان والقردة» ويوجد بقايا من هذا الحيوان(٣) في افريقيا واورازيا(٤). وهكذا فإن بين هذين الحيوانين؛ الأول الذي وجد قبل ٣٠ مليون سنة، والثاني الذي وجد قبل ١٩ مليون سنة لفترة تمتد ١١ مليون سنة ليس لدينا عنها أي علم في المستحاثات. وتضيف المجلة قائلة: بعد انقراض الحيوان الثاني منذ نحو تسعة ملايين سنة لم نجد في الصخور أي معلومات خلال سبعة ملايين سنة.

فماذا نستطيع أن نستنتج حتى الآن؟ نستنتج أولاً: أنه ليس هناك أدلة تثبت أن للانسان وللانسان القردي جداً مشتركاً. ثانيا: أن الصحف الأولية من التاريخ المزعوم لنسب الانسان هي صحف بيض فارغة. ثم إنه بين الوثائق الأولية، التي تعود إلى ثلاثين مليون سنة من الزمن وبين وقتنا الحاضر ثغرة تمتد ١٨ مليون سنة، وان أكثر الأشخاص الذين يفترض أنهم وصلوا بين جدنا البعيد القردي وبين إنسان اليوم هم غير موجودين وبالتالي فليس هناك شيء راهن يؤيد هذه الدعوى ولذا فليس من العجب أن تكتب المجلة الأمريكية في

(١) وأسموه Proplio Pithecus.

(٢) Gibbon قرد هندي ماليزي يتسلق الأشجار بخفة بسبب طول ذراعيه.

(٣) وأسموه Dryopithecus.

(٤) اسم كان القدماء يطلقونه على اوروبا وآسيا.

عدد (تموز) يوليو ١٩٦٤ وتقول: «إن من الحكمة ألّا نؤكد بأن الصلة بين الانسان القردي وبين الانسان، تعتمد اليوم على شهادة المستحاثات، بل أن ننتظر اكتشافات جديدة».

وفي الواقع أن أدلة المستحاثات التي سبق ذكرها أدلة واهية؛ بمعنى أن بعض علماء التطور لا يوصلون نسب أجداد الانسان بالحيوان الأول (Proplio)(١)، بل يوصلونه بالقرد المعروف باسم غيبون. ويقولون بأن (Dryopith)(٢) ستصل بنسب الانسان القردي الكبير المتطور وهم يرون أن أقدم أجداد الانسان حيوان أسموه (Ramapith)(٣).

وقد كتبت مجلة «نيويورك تايمس» بهذا الصدد تقول: «منذ نحو ١٢ مليون سنة ــ أي في منتصف الطريق بعد ظهور الحيوان الأول(Dryopith)ــ ظهرت مخلوقات قردية(٤) لها ملامح الانسان اكتشفت في سلسلة جبال سيواليك(٥) في شمال غرب الهند» وكان من البدهي أن يوسع هذا القول الثغرة بين هذا المخلوق وبين المخلوق الذي يفترض أنه الجد المشترك للانسان وللانسان القردي معاً.

هذا، وإن بين رامابيت وبين اوسترالوبيت(٦)، الجد التالي في سلسلة النسب، توجد ثغرة عميقة. وقد كتبت جريدة (أخبار العلوم) في عددها الصادر في ٢٨ (كانون الثاني) يناير ١٩٦٧ تقول: «من المؤسف أن يكون بين آخر «رامابيت» وبين أول «اوسترالوبيت» ثغرة تمتد عشرة ملايين سنة ليس لدينا عنها أي أثر للمستحاثات»... وهكذا فإننا أمام هذه المعطيات نجد الصخور صامتة

(١) حيث انه لا توجد مسميات عربية لهذه الحيوانات فإني مضطر أن أذكرها بأسمائها الغربية، وقد اختصرتها للتسهيل؛ فهذا الاسم هو في الاصل Propliopithecus.

(٢) وهذا الاسم في الأصل Dryo Pithecus.

(٣) وهذا الاسم هو Ramapithecus.

(٤) اسموه Simiesque.

(٥) جبال سيواليك توجد أمام جبال همالايا.

(٦) Australo Pithecus أي الانسان القردي الافريقي.

لا تدلي بأي دليل منذ ١٢ مليون سنة حتى عشرين مليون سنة قبل عصرنا هذا، فأين نحن من «رامابيت»؟ وإليكم ما قالته مجلة «ستر دي ايفننغ بوست»:

«لعل «الرامابيت» كان يشبه الشمبانزي الصغير الذي يتمتع بأيد خفيفة وبخفة القرد؛ وقد يمكن أن يكون من أوائل المخلوقات التي عرفت، ولكنه ليس بالمخلوق الأول في أسرة الانسان وكان لا يقل ذكاء عن الشمبانزي الذي نعرفه. وليس لدينا إلا فكرة عابرة عن «الرامابيت» مثل ما نأخذ فكرة عن صورة مقطوعة من فيلم طويل» وبناءً على الوصف الذي يقدمه لنا علماء التطور يبدو بأن «الرامابيت» كان حيواناً من أسرة القرد الانساني أو القردة الكبيرة. أما أن ندعي بأنه كان في سلسلة نسب الانسان فهو وهم، لا سيما وأن هناك بعض علماء التطور لا يقولون بأنه داخل في سلسلة التطور الانساني. وقد كتب أحدهم في كتابه: (أدلة من المستحاثات على تطور الانسان) يقول:

«يجوز لنا أن نتخيل صورة للمراحل المتوسطة التي تعترض بين أجدادنا المعروفة باسم «بيتيكويد»[١] وبين «اوسترالوبيت»، ولكن إذا انعدمت الأدلة الملموسة في المستحاثات تبقى الفكرة غير مقنعة».

وفي الواقع لا يكفي أن نتحدث عن سلسلة النسب النازلة من عند الجد المشترك المفترض حتى ننتهي إلى «الاوسترالوبيت» في حين أن هذه السلسلة ليست إلا نتيجة أوهام. فلماذا نقبل نظرية لا تقوم على الواقع؟

عصر الانسان البدائي[٢]

ما هي المراحل التي تلت المرحلة المتقدمة، ومن هو الانسان الأول «اوسترالوبيت»؟ يفترض أن يكون هذا الانسان قد ظهر قبل مليوني سنة،

(١) Pithécoîdes.

(٢) سميت هذا العصر بالبدائي تسهيلاً للفهم لأن العلماء أسموه عصر: Australo Pithecides.
وأسموا أهله: Australo Pitheques.

ويدعي العلماء أنه كان يعرف صنع الأدوات، ولكنهم يقولون بأن حجم دماغه كان ثلث حجم دماغ إنسان اليوم وقد كتبت جريدة «نيويورك تايمس» في عددها الصادر في ١١ (نيسان) ابريل ١٩٦٥ بمناسبة المستحاثات التي اكتشفها ليكي[١] تقول:

«إن الانسان الحاذق[٢] الذي اكتشفه الدكتور ليكي، والذي يبدو أنه كان يستطيع أن يصنع أدوات، يعتبره الدكتور روبنسون[٣] وغيره من العلماء شكلاً من أشكال الانسان الاوسترالوبيت». ويؤكد كتاب: (الانسان الأول)[٤] من جهة «على أن هذه الاكتشافات تسمح بتحقيق أول فرضية مترابطة بشأن تطور الانسان من أجداده القردة[٥]».

وقد استمرت أعمال التنقيب قرناً من الزمن حتى أمكن الحصول على بعض العظام التي أمكن بها تجميع هيكل (هو أول فرضية مترابطة) ترمي إلى شرح كيفية انحدار الانسان من جد قرد[٦] إنساني.

ولكن هل يمكن أن يستيقن المرء من أن «الاوسترالوبيت» كان حقاً قرداً إنساناً؟ يقول العالم التطوري «غرو كلارك»[٧] بتحفظ ما يلي:

«إنه لا يمكن أن يطلق لفظ إنسان أو إنسانية على هذا المخلوق إلا مع بعض التحفظ، لأنه لا يوجد أي دليل يثبت بأن ذاك الحيوان كان يملك أي صفة من صفات إنسان اليوم». وأما بشأن الأدوات وفيما إذا كان «الاوسترالوبيت» يعرفون صنعها حقاً تقول مجلة «العلوم» في عددها الصادر في

(١) Dr. L. Leakey.

(٢) Homo Habilis.

(٣) Dr. Robinson.

(٤) Primates.

(٥) من نوع Simiens

(٦) Anthropoîde.

(٧) Le Gros Clark.

١٣ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٥٧ في مقال بعنوان: (هل كان الاوسترالوبيت والانسان معاصرين؟) ما يلي:

«يتحدث الدكتور «روبنسون» عن اكتشاف ٥٨ قطعة أداة حجرية اكتشفت في «ستيركفورتن»[١] في جنوب أفريقيا. ولهذا الاكتشاف أهمية كبيرة على اعتبار أن هذه الصخرة تحتوي أيضاً على بقايا إنسان قردي من نوع بليستوسي[٢] الأدنى الموجود في جنوب أفريقيا... ويختم الدكتور مقاله قائلاً: إن الصفات المذكورة لهذه الأدوات الحجرية تجعلنا نشك بصحة نسبتها إلى «الاوسترالوبيت»، بل يرى أن الفرضية المعقولة، في الوقت الحاضر، أن تنسب هذه الصناعة إلى إنسان حقيقي».

وكتبت مجلة «العلوم» في عددها الصادر في ٢٩ (تشرين الثاني) نوفمبر ١٩٥٧ مقالاً بعنوان: (صائدي الطرائد) تقول:

«كتب ريمون دارت[٣]، الذي يعود إليه الفخر في اكتشاف «الاوسترالوبيت» الأوائل في هذه الأيام الأخيرة، مقالاً مطولاً عن الحياة الاجتماعية للانسان القرد، وهو مقال ممتع ومليء بالتناقضات. هذا، وإن المعطيات التي بنى عليها استنتاجاته ثم إن خاتمته ذاتها بدت غير مقنعة في نظر بعض دارسي تطور الانسان».

أما الأدلة التي قدمها «دارت» على استعمال هذه المخلوقات للنار استعمالاً ذكياً لم تثبت أمام تجربة التحليل النقدي، هذا بالإضافة إلى أن بعض الباحثين أمثال «اوكله»[٤] قد نسبوا إلى بعض الحيوانات آكلة اللّحم، مثل الضبع، جمع عظام غير «الاوسترالوبيت»، التي وجدت في طبقات من الأرض مع بقايا

---

(١) Sterkfontein.
(٢) Pleistocènes هو العصر الأول من الحجر المنحوت.
(٣) Raymond Dart.
(٤) Oakley.

«اوسترالوبيت»... وقد استخلص «واشبورن»[١] من هذا أنه من الممكن ألاّ يكون «الاوسترالوبيت» صيادين بل طرائد»...

ولهذه الأسباب ولغيرها يعتقد بعض علماء التطور بأن بقايا المستحاثات تعود إلى آخر جماعة من القرد الانساني وليست إلى سلسلة نسب جدود الانسان. وقد كتب العالم الانتقالي «ليهرمن»[٢] في كتابه المعنون بـ(الطريق الطويلة المؤدية إلى الانسان)[٣] المطبوع سنة ١٩٦١ يقول: «لم يكن الاوسترالوبيت إلا فرداً ذكياً وذا قامة مستوية ولم يكن إنساناً. وكانت جمجمته ذات حجم صغير وله فوق عينيه عرف صدغي ناتىء وفي خط وسط الجمجمة ارتفاع شأنه في ذلك شأن كل القردة الانسانية».

وقال «ايشلي»[٤] أيضاً في كتابه: (العصور الأولى للانسان)[٥] المطبوع سنة ١٩٦٤ ما يلي:

«ان جمجمة الاوسترالوبيت تشبه في شكلها جمجمة القردة شبهاً كبيراً... وبالتالي فإننا نجد أنفسنا أمام تطورات قادتنا إلى استبعاد هذه الحيوانات عن النسب المباشر للانسان».

---

(١) Washborn.
(٢) Robert. L. Lehrman.
(٣) The Long Road to man.
(٤) Ashley Montagu.
(٥) Les Premiers Âges de L'Homme.

المستحاثات الحديثة

في السلسلة الصاعدة المؤدية إلى الانسان الذي يتصوره علماء التطور نجد الحلقة المهمة التالية؛ تضم عدداً كبيراً من قطع المستحاثات التي كانت تعتبر فيما مضى؛ وكأنها تمثل حلقات مختلفة سميت بالتالي بأسماء مختلفة. وهذه المستحاثات هي الآن مجموعة في نطاق نوع واحد هو الانسان الحاضر(١). ولكنه يختلف عن الانسان المستوي(٢). وإليكم ما قالته «الموسوعة الأمريكية» بهذا الشأن: «إن لفظ الانسان مستوي القامة هو اللفظ الذي أطلقه كثير من العلماء على كل أجناس المستحاثات ذات الأجسام الانسانية والتي يتراوح حجم دماغها ما بين ٧٠٠ سم مكعب و ١١٠٠ سم.

ويحتل الانسان مستوي القامة مركزاً رفيعاً في عالم «الاوسترالوبيت»، ولكنه دون الانسان العاقل أو الانسان الحاضر وهناك ثلاثة أنواع من الناس صنفت في الدرجة الثانية بوضوح وهي: ١ ــ إنسان جاوه(٣)، وقد وجد قبل ٥٠٠ ألف سنة. ٢ ــ إنسان بكين(٤) وقد وجد قبل ٣٦٠ ألف سنة. ٣ ــ إنسان شيلي(٥) وقد وجد في تانغانيكا قبل نحو ٤٠٠ ألف سنة.

---

(١) Homo Sapiens أو الانسان العاقل.

(٢) Homo Erectus أو الانسان مستوي القامة.

(٣) Pithecan therope.

(٤) Sinan Thrope

(٥) African Thrope.

فهل جميع علماء المستحاثات يفسرون هذه المستحاثات بشكل واحد؟

كلا، بل تقول «الموسوعة الأمريكية» ما يلي: «إن بعض علماء المستحاثات يقولون: بأنها هي آثار القرد الانساني[1] ولكنه قرد أقرب إلى الانسان من أي قرد سواه اكتشف إلى ذاك الوقت. وآخرون يعتبرون هذه المستحاثات بقايا إنسان أدنى» ومهما يكن من أمر، فقد كتبت «المجلة العلمية الأمريكية» في عدد «أيار» مايو ١٩٦٥ تقول: «إن جميع الذين انصرفوا إلى البحث عن الانسان الأول متفقون على أن الانسان العاقل الحاضر ينحدر من الانسان مستوي القامة».

فما دام جميع علماء التطور مجمعون على أن الانسان منحدر من الانسان مستوي القامة؛ أوليس من حقنا أن نظن بأنهم يستندون إلى أدلة قاطعة لا تقبل الرفض؟ فما هي هذه الأدلة يا ترى؟ تجيب على هذا السؤال المجلة ذاتها وتقول: «ليس هناك أي دليل مباشر عن الانتقال»، فكيف يستطيع الانتقاليون، إذن، أن يتفقوا على أن الانسان مستوي القامة قد تحول إلى الانسان العاقل بينما هم يعترفون بأنهم لا يستندون إلى أي دليل؟ ألا يمكن أن نفسر هذا النوع من الاتفاق بأنه عقيدة وسذاجة في التصديق، لا بل وإيمان أعمى لأناس يجعلون من رغبتهم أمراً واقعاً. ومهما يكن من أمر فإن مثل هذا التفكير لا يستند إلى واقع علمي.

ولنذكر أيضاً بأن «المجلة العلمية الأمريكية» ذكرت في عددها الصادر في (تشرين الثاني) نوفمبر ١٩٦٦ بأن المستحاثات التي اكتشفت حالاً في المجر قد دلت على أن جماعة راقية تنتسب إلى الانسان العاقل كانت تعاصر جماعة من الانسان مستوي القامة. وبهذه المناسبة كتب الدكتور «وينشستر» [2] أستاذ علم الحياة في كتابه: (علم الحياة وعلاقته بالانسان)[3] المطبوع سنة ١٩٦٤ يقول:

---

(١) Anthropoïde.

(٢) A. M. Winchester.

(٣) Biology. Ama its Relation to Mankind.

إن بقايا إنسان «سوانسكومب»[1] في أوروبا، وبقايا إنسان «كانجيرا»[2] في أفريقيا وغيرهما، توحي بأن الانسان الحقيقي وجد منذ نحو ٣٠٠ ألف سنة وبهذا يكون قد عاصر الانسان مستوي القامة.

فإذا كان الانسان مستوي القامة إنساناً فإنه، على الغالب، يحتل فرعاً من نوع الانسان، ولعله انحط ثم انقرض مثل غيره من الأجناس. وهناك مستحاثات أخرى اعتبرت فيما مضى دون الانسان الحاضر وهي تعتبر اليوم مماثلة للانسان، وقد صنفت في صف الانسان العاقل. وكتبت «الموسوعة العالمية» تقول بهذا الصدد ما يلي:

«إن لفظ – الانسان العاقل – هو الاسم الذي يطلق، غالباً، على جميع الأجناس ذات الجسم السوي والدماغ الذي لا يقل حجمه عن ١١٠٠ سم مكعب، ويتراوح وسطياً بين ١٣٥٠ وبين ١٥٠٠ سم مكعب وهذه الجماعة تضم كل أشكال الانسان الحديث. وإنسان ما قبل نياندرتال[3] هو المثال الأول على الانسان العاقل ويرجع وجود هذا الانسان إلى نحو ٣٠٠ ألف سنة ق. م وقد وجد علماء الآثار بقايا جمجمة بالقرب من «سوانسكومب» في انكلترا و «ستينهيم»[4] في المانيا.

هذا، ولم يمض بعد وقت طويل على علماء التطور يوم كانوا يظنون بأن إنسان نياندرتال هو إنسان قرد والحلقة المفقودة للجد المباشر للانسان الحاضر. فجاءت مجلة «هابر»[5] لتقول في عددها الصادر في (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٢ ما يلي: «إن إنسان نياندرتال لم يكن دميًا ولا محدوباً، ولا كان شكله شكل حيوان كما يظن غالباً، بل كانت جماعة منهم تشتكي من التهاب

---

(١) Swanscombe. في انكلترا

(٢) Kanjera.

(٣) Preneanderthal.

(٤) Steinheim.

(٥) Haper.

المفاصل». وكتبت مجلة «نيويورك تـايمس ماغـازين» في عددهـا الصادر في ١٩ (أيار) مايو ١٩٦١ تقول: إن حجم جمجمة الانسان النياندرتال كانت ١٦٢٥ سم مكعب أي إنها أكبر من حجم جمجمة الانسان الحاضر المتوسط.

ولا يخلو من الفائدة أن نذكر هذا الوصف الذي جاء في الموسوعة المذكورة آنفاً حيث تقول:

«في البدء كان العلماء يظنون أن إنسان نياندرتال كان ذا هيكل قردي، دميم، محدودب وذا مظهر حيواني ولكن الأبحاث الأخيرة أظهرت أن أجسام رجال ونساء النياندرتاليين كانت إنسانية تامة وكانت مستوية وذات عضلات نامية، وكان دماغهم بحجم دماغ إنسان اليوم».

ولكن الموسوعة مع إقرارها بهذا الواقع فإنها قدمت مع مقال كان صورة لأسرة نياندرتالية تمثلها كالقرود ذات هيكل متجمع وظهر محدودب وشكل حيواني. وذلك لأن أكثر الكتب والصور والهياكل العظمية المجمعة في المتاحف تصر على عرض الانسان النياندرتالي بهذه الصورة المشوهة لكي توحي بأن القرد الانسان هو جد الانسان.

وهناك مستحاثات أخرى كانت، فيما مضى، تعتبر وكأنها عائدة إلى أنواع مختلفة صنفت اليوم مع الانسان الحاضر. وكان جنس «كرو مانيون»(١) يشبه الانسان شبهاً تاماً في جميع صفاته. وأكدت مجلة «سيانس دايجست» بأن دماغ الانسان ما زال في تناقص من حيث الحجم منذ زمن إنسان كرو مانيون. وهذا دليل على التراجع وليس على التطور إلى الأفضل. وكتبت مجلة «شيكاغـو تريبيون» تعليقاً على تصريح «ارنست ماير» بشأن دماغ الانسان تقول: إن هذا العالم الملحق بجامعة هارفارد يرى بأن نمو دماغ الانسان، وهو الميزة التي تميز الانسان عن الحيوان، قد توقف عن النمو منذ مئة ألف سنة.

وهناك كثير من المستحاثات التي قدمت على اعتبار أنها تعود إلى ما قبل

(١) Cro Magnon.

التاريخ هي، في الواقع، ليست كذلك بدليل اكتشاف مستحاثات لإنسان اليوم في الطبقات الأرضية ذاتها، بل طبقات الأرض الأكثر قدماً حيث وجدت مستحاثات قيل بأنها تعود إلى ما قبل التاريخ. ويتظاهر أكثر علماء التطور بجهلهم بوجود هذه المستحاثات الانسانية لأنها لا تتفق مع فكرتهم التي تبنوها بشأن تحول الحيوان الجلف إلى إنسان. ويقول كتاب: (علم الأحياء وعلاقته بالانسان) ما يلي: لقد مضى وقت كان يظن فيه بأن الانسان الحاضر منحدر مباشرة من إنسان جاوه وإنسان روديسيا والانسان النياندرتالي ولكن مع توفر الأدلة بدت استحالة هذا الأمر إذ وجدت بقايا إنسان حقيقي قديم عاصر أجناساً أخرى وكتب العالم بالأحياء الاستاذ «مارش»(١) في كتابه: (التطور أو الخلقة الخاصة)(٢) يؤيد الفكرة السابقة حيث يقول: هناك مثال آخر على تزوير الأدلة هو قضية دوبوا(٣)، الذي بعد سنوات من إعلانه الذي أحدث ضجة، والذي قال فيه: انه اكتشف بقايا من إنسان جاوه، اعترف بأنه في الوقت نفسه وفي المكان ذاته وجد عظاماً تعود، بلا شك، إلى الانسان الحاضر. وقد عالج كتاب «ساينس مودرن»(٤) هذه القضية بقوله: «من الجدير بالملاحظة ألا نهمل الهياكل العظمية العائدة لإنسان اليوم والتي وجدت في أماكن متفرقة وأكثرها، على الغالب، يدل على أنها قديمة إذا لم تكن حتى أقدم من هياكل الانسان «هومينويد»(٥) المفترض أنه أقل رقياً منا... وليس هناك أي دليل راهن يؤكد النظرية التي يراها بعض العلماء والقائلة بأن إنسان نياندرتال وإنسان بيكين وغيرهما يمثلون أجناساً منحطة انحدرت من الانسان العاقل عن طريق الانتقال والانعزال وغير ذلك، بل الأصح هو أن نقول بأن إنسان اليوم هو إنسان قد انحط عن أجداد كانوا أفضل منه إذ من المعلوم أن جنس كرو مانيون

(١) F. Marsh.

(٢) Evolution or Special Creation

(٣) Du Bois.

(٤) Science Moderne.

(٥) Hominoïde.

الذي سكن أوروبا في فترة قريبة من النياندرتال كان أرقى من إنسان اليوم سواء من حيث القد أو من حيث سعة الجمجمة.

الخديعة

هناك كثير من المستحاثات التي ليست، في الواقع، إلا أنواعاً من الانسان العاقل تعرض في الصور والمتاحف بأشكال حيوانات. ولكن هذه الصور وهذه الهياكل العظيمة التي جمعت لا تمثل الحقيقة، إذ أننا لا نستطيع أن نتبين من خلالها مظهرها البدائي ولا هيكلها ولا لون جلدها. وقد كتب العالم التطوري «غرو كلارك» في كتابه: (أدلة علم المستحاثات في تطور الانسان)[1] يقول: لا يوجد جنسان تتميز صفات جمجمة الواحد عن الآخر مثل الجنس الاسود والاسكيمو وقد لا يتفق الخبراء بشأنها حينما يكونون أمام جمجمة من المفروض أن تكون لأحدهما. فإذا كان يصعب البت بأمر التمييز بين هذين الجنسين فكم من الصعب ـ لا بل من المستحيل ـ التمييز بنثرات من الهيكل العظمي بين جماعات عرقية صغيرة علاماتها المميزة أقل ظهوراً من هذين العرقين؟

ويؤكد هذا القول الاستاذ «ايفار»[2] في كتابه: (وكان الله هناك)[3] حيث يقول: «لقد بدأنا نشعر بأن الانسان البدائي لم يكن متوحشاً، وقد بقي علينا أن نقتنع بأن إنسان ـ بليستوسين ـ لم يكن جلفاً ولم يكن قرداً ولذا فإن الهياكل العظمية التي أعيد تركيبها والتي يقال بأنها تمثل النياندرتال أو غيره من الناس، لا تمثل الحقيقة.

إن متاحف المدن الكبيرة تعرض رؤوس أشخاص قبيحة جلدها أغبر بلون التراب ولها لحى مبالغ في طولها ذات جبهات واسعة وفكها ناتىء. بينما الواقع أنه لا يمكن أن يعرف بواسطة العظام شيء عن لون البشرة وعن

(١) The Fossil Evidence for Human Evolution.

(٢) Ivar Lissner.

(٣) Dieu était Déjà Là.

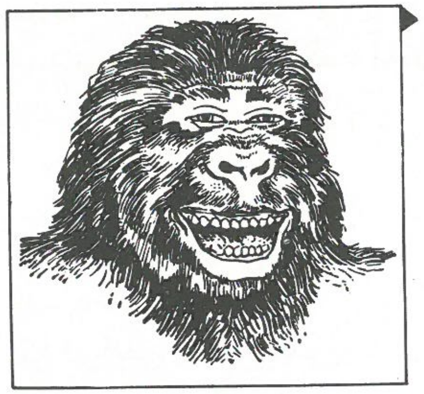

الشكل الأول

صورة مطبوعة في جريدة صانداي تايمس في (نيسان) ابريل ١٩٦٤ لإنسان زنجانتروب أعيد تركيبه.

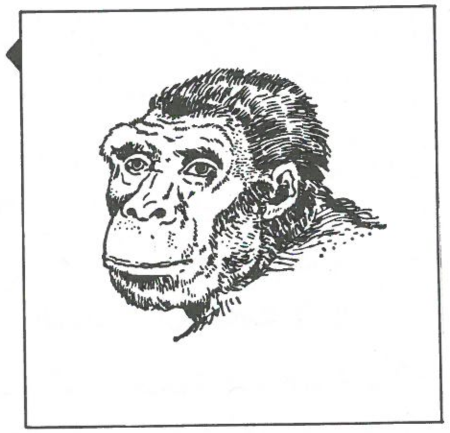

الشكل الثاني

أعيد تركيب هذا الرأس الزنجانتروب لأجل عالم مشهور.

الشكل الثالث

شكل زنجانتروب نشر في «المجلة الجغرافية الوطنية» في شهر (ايلول) سبتمبر ١٩٦٠.

زنجانتروب Zinjanthrope اسم ابتدعه الدكتور ليكي لانسان افريقي اكتشفه سنة ١٩٥٩ في تنزانيا ويعود وجود هذا الانسان إلى ما بين سنة ١,٦٠٠,٠٠٠ و ١,٩٠٠,٠٠٠ ق.م.

السحنة كما يعترف بذلك العالم الأمريكي «ستيوارت» بقوله: «إنه من المستحيل إعادة تركيب أي شيء في هذه الحالات، بل لعل من الممكن ألاّ تكون خلقة الانسان القديم أقل جمالاً من خلقة إنسان اليوم».

وهكذا فإن علماء التطور يستعينون بـالعلم لكي يعطوا المستحـاثات الأشكال التي كونوها في أفكارهم، ويؤيد هذا القول ما نشرته جريدة «نيويورك تايمس» سنة ١٩٥٩ حيث قالت: إن إنسان بيكين الذي مضى عليه ٥٠٠ ألف سنة قد أعطي خلقة جديدة ليلعب دوراً رئيسياً في فيلم وثائقي صيني. وقد أعيد تركيب هذا الانسان، الذي هو إنسان ما قبل التاريخ، لهذه الغاية وعرض الانسان الجديد، على العالم، على اعتبار أنه أشبه الناس بالانسان القديم.

وليس هذا التزوير في الأمور العلمية هو التزوير الوحيد، بل بالامكان ذكر أمثال كثيرة له، ومثال ذلك حينما أعلن الطبيب الهولندي «دوبوا» في سنتي ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ أنه اكتشف إنسان جاوه أو بيتكانتروب ماذا اكتشف يا ترى؟ نترك الجواب على هذا السؤال للموسوعة البريطانية التي أجابت بما يلي:

«إن القطع العظمية الخمس كانت قطعة من جمجمة تشبه جمجمة قرد كبير (كيبون) وعظم فخذ أيسر وثلاثة أضراس وقد اكتشفت هذه العظام بعيدة الواحدة عن الأخرى نحو عشرين خطوة. واكتشفت قطعة من الفك الأيسر في مكان آخر من الجزيرة ولكن في طبقة أرضية من العمر ذاته».

فهل يمكن أن نصف العثور على هذه القطع، التي وجدت الواحدة بعيدة عن الأخرى مسافة خمسة عشر متراً، وأن نضيف إليها قطعة وجدت على بعد بضعة كيلومترات بأنه اكتشاف علمي، ثم أن ندعي بأن كل هذه القطع جاءت من إنسان من نوع واحد؟

ويعطينا العالم بالتطور «غرو كلارك» مثلاً آخر على التزوير ويقول:

«من الخطأ الكبير ان يعتمد المرء في هذه الأمور على معطيـات غير كافية... وقضية سن الخنزير الشهيرة مثال على ذلك وقصة ذلك هو انه في سنة

١٩٢٢ اكتشفت في نبراسكا[1] سن قيل انه سن قرد ــ انسان قد انقرض... وقد ثبت بعد ذلك انه سن خنزير بري... وليس من شك بأن هناك قليلاً من العلماء الذين لم يرتكبوا مثل هذه الاخطاء خلال حياتهم العلمية».

وكتبت الموسوعة البريطانية بمناسبة اكتشاف آخر تقول: «لقد كان أعظم اكتشاف بعد ذلك... اكتشاف «شارل داوسون»[2] في «بيلتداون»[3] في سوسيكس بين سنتي ١٩١١ و١٩١٥، إذ وجد الجزء الأكبر من النصف اليساري من جمجمة إنسان كما وجد قطعاً من النصف الأيمن. واكتشف أيضاً النصف الأيمن من ذلك مهترىء في بعض نواحيه ولكنه كان معه الضرس الأول والثاني في مكانها وحفرة الضرس الثالث، ضرس العقل، ظاهرة... ويرى الخبراء الانكليز، الآن، بأن الجمجمة والفك هما لشخص واحد هو إنسان بيلتداون».

ولكن هل الخبراء الانكليز قد عملوا حقاً كرجال علم مجردين؟ تجيبنا على هذا السؤال مجلة «ساينس نيوز» في عددها الصادر في ٢٥ (شباط) فبراير ١٩٦١ حيث تقول:

«إن من أعظم الأخطاء المكتشفة بالطرق العلمية هي قضية إنسان بيلتداون التي اكتشفت في سوسيكس في انكلترا... والذي يعتقد بعض العلماء أنه يرجع إلى نصف مليون سنة إلى الوراء. وبعد أخذ ورد ثبت بأن هذا الانسان لم يكن إنساناً بدائياً قط بل هو مجموعة من جمجمة إنسان اليوم وفك قرد وقد موّه ببيكرومات البوتاسيوم وبملح الحديد لإعطائه شكلاً متحجراً أقدم من حقيقته». ولم تصبغ قطع الجمجمة فقط بل بردت الأسنان لكي تظهر وكأنها قد ذابت من الاستعمال. وقد كتبت مجلة: «المختار من ريدر دايجست» في عدد (تشرين الثاني) نوفمبر ١٩٥٦ تقول: «إن جميع القطع المهمة قد موهت وزورت

(١) إحدى ولايات «الولايات الأمريكية المتحدة» وتقع في الشمال الغربي من وسط البلاد.
(٢) Charles Dawson.
(٣) Piltdown. من أعمال Sussex من بلاد انكلترا.

أيضاً، وأن إنسان بيلتداون كان عملية تزوير من أولها إلى آخرها. وفي خضم هذه الشهادات بدا أن جميع أبطال تمثيلية بيلتداون كانوا أبرياء ما عدا شارل داوسون».

وكتبت «مجلة العلوم الأمريكية» في عددها الصادر في (كانون الثاني) يناير ١٩٦٥ تقول: إن جميع علماء التطور لا يتورعون عن اللجوء إلى أي حيلة لينسجوا أدلة وهمية لإثبات ما ليس لديهم عليه من دليل. وجاء في المقال المذكور تعقيبا على نيزك يحتوي على مواد عضوية اتخذه علماء التطور دليلاً على التطور ما يلي:

«إن فحص قطعة من هذا النيزك الذي سقط في الجنوب الغربي من فرنسا منذ أكثر من قرن من الزمن قد دل على أن هذا الجسم السماوي قد مُوِّه بمهارة فائقة بمواد عضوية أرضية. ويبدو إن المزورين قد نقعوا قطع النيزك في الماء لكي تلين ثم إنهم أضافوا إليها مواد غريبة مختلفة ثم إنهم، باستعمال الصمغ، موهوا سطحه لكي يشبه من جديد القشرة التي تحدث بالحرارة الجوية... ومما تجدر الاشارة إليه ان هذا النيزك سقط بعد خمسة أسابيع من إعلان العالم باستور دفاعه العظيم عن خلقة الانسان والذي كانت له ضجة كبيرة في الأوساط، حيث أعلن بأن الحياة لا تأتي إلا من الخالق العظيم».

وهناك خدعة ثانية تقوم على تقديم معطيات ذات وجهين بشأن التطور لخداع الجهلاء؛ فمن ذلك أننا كثيراً ما نرى مستحاثات مرصوفة بشكل يدعو الجاهلين إلى الظن بأن بعضها منبعث من البعض الآخر بينما يعترف علماء التطور أنفسهم بعكس ذلك. وخدعة ثالثة تقوم على الايحاء بأن الانسان منحدر من قرد بينما النظرية الحديثة تنفي هذه الدعوى. على أن هذا النفي لم يمنع مؤلف كتاب: (الانسان الأول) من أن يعنون الفصل الثامن من كتابه هذا بكلمة: «من الانسان القرد إلى الانسان».

من كل هذا يبدو بوضوح بأن تفسير علماء التطور للمستحاثات وإعادة تركيب أجسام أجداد الانسان ليست إلا مهازل علمية تقوم على أوهام وفرضيات. وأن سلسلة التطور تنطوي على ثغرات كثيرة زمنية وجغرافية وعلم

LAU LIBRARY BEIRUT

هيئة. وتدل المعطيات العلمية الأكيدة على أن الانسان لم ينحدر من الحيوان، بل خلق خلقة إنسانية خاصة تختلف عن الحيوانات، وأن هذا الاختلاف موجود منذ الأزل، وسيظل إلى الأبد، وبسبب احتواء جسم الانسان على الحمض الريبي النووي لا يستطيع أن يتلاقح مع أي حيوان. بل يظل في نطاق جنسه تبعاً لأحكام مولده. هكذا كان وهكذا سيظل أبداً.

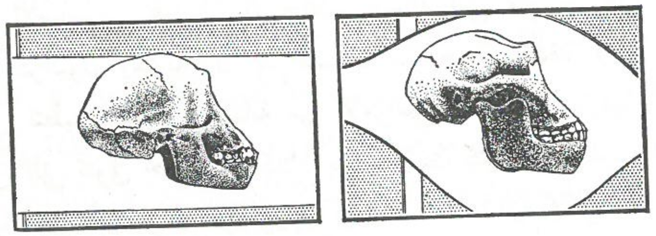

في الصورة العليا جمجمتان لنوعين من «القرد الانساني» عرضتا في المعرض الأمريكي للتاريخ الطبيعي بنيويورك، وتحتها جمجمة إنسان في العصر الحديث. ويلاحظ أن لا دليل في جمجمتي «القرد الانسان» يؤكد أنه جد الانسان الحالي.

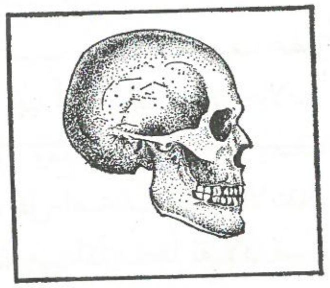

جمجمة إنسان وهي لم تختلف منذ القديم حتى اليوم

الأعضاء البدائية

يستشهد علماء التطور، على تطور الانسان، بوجود ما يسمونه الأعضاء القردية أو البدائية، ومن ذلك ما يعتبرونه بقايا أعضاء كانت مفيدة، فيما مضى، ولكنها أصبحت مع تطور الانسان أعضاء زائدة لا نفع لها مثل الغدة

الصقرية. وقد جاء في مجلة: «المختار من ريدر دايجست» لشهر (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٦ ما يلي:

«منذ عشرين قرن، على الأقل، والأطباء يتساءلون عن عمل عضو صغير بلون رمادي وردي موجود في أسفل العنق وراء عظم القص ويسمى الغدة الصقرية... وقد اتفق العلماء الحديثون على أنه عضو زائد لا فائدة منه بعد أن فقد عمله الأساسي. غير أن الأبحاث الحديثة التي قام بها علماء امريكيون وانكليز واستراليون وسويديون قد كشفت سر هذه الغدة، وظن أنها الغدة الرئيسية في تنظيم عملية الحصانة من الأمراض المعدنية... فهل هذه الغدة وحدها هي التي تتولى حصانتنا؟ كلا. بل قد ثبت بنتيجة التجارب الحديثة التي أجراها الباحثين بأن الزائدة واللوزتين والنباتات الغذائية يمكن أن تلعب دوراً مشابهاً في الحصانة».

وقد كتبت «الموسوعة البريطانية» بهذا الصدد تقول: «إننا نعرف الآن عدداً من الأعضاء كانت تسمى «بدائية» بينما هي تقوم بأعمال ذات شأن».

وبالتالي فليس من سبب يدعونا أن نصف عضواً ما بأنه بدائي لأننا نجهل عمله، أو لأنه لا يعمل جيداً. فهناك سنوياً حالات مرضية تصيب الحلق أكثر من حالات مرض الزائدة ومع ذلك فلا أحد يصف مرض الحلق بأنه بدائي. أضف إلى ذلك أنه يجب على أصحاب نظرية الانتقال أن يثبتوا بأن ظهور أعضاء جديدة في جسم الانسان هي أكثر نفعاً له لأن ضمور الأعضاء لا يثبت التطور بل، على العكس، يدل على أن الانسان قد انحط وتراجع ولم يتطور إلى ما هو أصلح.

متى وجد الانسان؟

إن إحدى النظريات التطورية الرئيسية تقول بأن الحياة وجدت ببطء خلال مئات ملايين السنين. فهل هذا القول يتعارض مع ما جاء في الكتب المقدسة التي تقول: بأن الانسان ظهر على وجه الأرض منذ نحو ٦,٠٠٠ سنة

أي منذ ظهور آدم فقط، وأن كل المخلوقات الموجودة على سطح الأرض خلقت في بحر ستة أيام.

إن «التوراة» لم تؤكد على المدة التي خلقت فيها الأرض ذاتها، وأما بشأن العالم المادي ــ بما فيه الأرض ــ فإن التوراة تقول: في البدء خلق الله السموات والأرض. وهذه الفقرة لا تستبعد إمكانية أن تكون المواد التي خلقت منها الأرض كانت موجودة منذ مليارات السنوات قبل أن تكون أرضنا قد سكنها مخلوقات حية. ثم إن التوراة تتحدث عن ستة. أيام ظهرت فيها الحياة، ولكنها تستعمل كلمة يوم لتدل على فترة زمنية ولا تقول ٢٤ ساعة، بل تقول فترة من الزمن، والدليل على ذلك موجود في التوراة التي تستعمل كلمة يوم لتدل تارة على ٢٤ ساعة وتارة لتدل على فترة زمنية[١].

---

(١) لكتب الديانات مقاييس زمنية غير مقاييسنا، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة﴾.

(سورة السجدة ٥)

وقوله تعالى: ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده. وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما يعدون﴾

(سورة الحج ٤٧)

وقوله تعالى: ﴿وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾.

(سورة المؤمن ٤٩)

وجاء في الانجيل ــ رسالة بطرس الثانية ــ «إن يوماً واحداً عند الرب كألف سنة، وألف سنة كيوم واحد».

وجاء في «التوراة»: «لأن ألف سنة في عينك مثل يوم أمس بعدما عبر، وكهزيع من الليل».

وجاء في كتاب «منو سمرتي»: كتاب الهندوس المقدس: إن شهراً واحداً من شهور الانسان كيوم واحد من أيام الأجداد. وكل سنة من سني الانسان كيوم واحد من أيام الآلهة، وكل ألف يك (واليك يعدل ١٢,٠٠٠ سنة إلهية). كنهار واحد لبرهما وليلة مثل ذلك وكل ألف يك من يك برهما لعدل نهاراً واحداً من شهر برماتما...

من هذه النصوص وغيرها يستنتج أن أيام الله جل وعلا تختلف ــ في طولها وعدتها ــ عن الأيام التي اصطلح عليها البشر، والله يخلق ما يشاء ويختار.

فكيف يمكن تفسير هذا الفرق الموجود بين ٦,٠٠٠ سنة التي تحددها التوراة لوجود الانسان على الأرض وبين ملايين السنين التي يحدثنا عنها التطوريون؟ لمعرفة ذلك لا بد لنا من أن نلم بالطريقة التي يستعملها التطوريون لقياس الزمن لنعرف الصواب.

إن إحدى الطرق التي يقاس بها الزمن هي معرفة ما تحويه الاشياء المكونة من مواد عضوية مثل: العظم والخشب وغيرها، من إشعاع كربوني (C. ١٤). وكربون ١٤ عنصر غير مستقر ومنحل ويتكون في جو الأرض بتأثير الاشعاع الكاربوني. وتمتص الخضار كربون ١٤ من الفضاء. وحينما يأكل إنسان أو حيوان خضاراً يمتص جسمه كربون ١٤ وإذا مات وقف الجسم عن امتصاص كربون ١٤ وبدأ ما كان متراكمًا منه في الجسم بالانحلال. وقد حسب العلماء بأن نصف كربون ١٤ الموجود في الجسم ينفد في بحر ٥٦٠٠ سنة ولذا يقال بأن فترة الاشعاع الكربوني هي ٥٦٠٠ سنة.

ويستطيع العلماء أن يقرروا عمر قطعة العظم أو الخشب أو غيرهما من المواد العضوية بمعرفة كمية الكربون ١٤ الذي تحويه، فإذا كان نصف كربون ١٤ قد انحل تعتبر المادة المراد معرفة عمرها قد بلغت نحو ٥٦٠٠ سنة، وإذا كان الذي فقد من كربون ١٤ قد بلغ ثلاثة أرباعه يقدر عمر المادة بضعف هذه السنين. وهلم جرا. والفحص بهذه الطريقة له حدود، لأن فترة الاشعاع الكربوني فترة قصيرة نسبياً بحيث أننا لا نستطيع أن نقيس أعمار الأشياء التي تزيد على ٥٠,٠٠٠ سنة بهذه الطريقة.

فماذا أظهرت لنا طريقة معرفة التاريخ، بواسطة كربون ١٤ التي طبقت على أشياء قديمة جداً ومن المفروض أنها كانت داخلة في استعمال الانسان؟ بدا أن الأكثرية الساحقة من هذه الأشياء ما زالت تحوي على أكثر من نصف كمية الاشعاع الكربوني مما يجعلها داخل حدود الـ ٦,٠٠٠ سنة من حياة الانسان (باعتبار التوراة)، بيد أن هناك أشياء قد دلت على أن الانسان قد وجد قبل ٦,٠٠٠ سنة بقليل فهل هذا القول يضعف توقيت التوراة؟ وللجواب على هذا

نقول: إنه قبل كل شيء يجب أن نعلم بأن طريقة الكربون ١٤ قد قامت على فرضيات كثيرة وقد بحثت هذه الفرضيات في مؤتمر عقده أخصائيون بالاشعاع الكربوني وكتبت «المجلة العلمية» في عددها الصادر في ١٠ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٥، بهذا الصدد، تقول:

لقد أكد المجتمعون في هذا المؤتمر على أن المختبرات لا تقيس أعمار النماذج بل تقيس إشعاعها، وان الصلة بين الاشعاع وبين عمر المادة تقوم على سلسلة من الفرضيات... أما فيما يتعلق بمعرفة التاريخ بواسطة كربون ١٤ فيفترض، على الأخص، بأن يكون مستوى الاشعاع الكربوني مستقراً خلال تمام الفترة التي طبقت عليها الطريقة. فإذا اختلفت مع الزمن، محتوى الجو من الكربون ١٤ فماذا تكون النتائج؟ تجيب على هذا السؤال «مجلة ساينس دايجست» في عدد (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٠ حيث تقول:

«إن هذا يفسد بالتأكيد بعض وسائلنا المتقنة والمتبعة في معرفة آثار الماضي... وإذا كان امتصاص كربون ١٤، فيما مضى، أقل مما هو عليه بسبب الوقاية المغناطيسية الاكبر ضد الشعاع الكوني فإن تقديرنا للزمن الماضي، منذ موت المادة التي نفحصها، يكون صحيحاً».

فماذا نقول، إذن، بشأن دقة وانتظام تكوين الاشعاع الكربوني في الماضي؟ تجيبنا على هذا السؤال «الرسالة العلمية السنوية» لسنة ١٩٦٦ حيث تقول: لقد لاحظ العلماء بأن محتوى الهواء والبحر من كربون ١٤ لم يكن ثابتاً خلال سنوات كما افترضوا من قبل ان يكون.

هذا بالإضافة إلى أن الناس ينسون، على الغالب، أن جو الأرض قبل نحو ٤٣٠٠ سنة كان أكثر وقاية ضد الأشعة الكونية إذ تقول «التوراة» إن الأرض كانت مغطاة بقبة من الماء معلقة فوقها وأن انهمار مياه هذه القبة أحدث الطوفان العالمي زمن نوح. وأن هذه القبة من المياه كانت تحمي جونا من الاشعاع الكوني وتقلل من تكوين الاشعاع الكربوني، ولهذا السبب نجد بعض المواد التي كانت قبل الطوفان تبدو وكأنها أكثر عمراً من حقيقتها لأنها امتصت

كمية من كربون ١٤ أقل مما امتصت بعد الطوفان(١). واعترفت المجلة العلمية في عددها المؤرخ في ١١ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٥٩ بأن طريقة الاشعاع الكربوني لم تستطع أن توفر لنا تواريخ يمكن الاعتماد عليها وقالت: «وعلى الرغم من أن هذه الطريقة قد استقبلت، في بداية الأمر، كجواب لمطاليب علماء ما قبل التاريخ فقد أخذوا يوماً بعد يوم ينكرونها بسبب عدم دقتها، لا بل وعدم مطابقتها للمنطق والمعقول بالنسبة إلى التواريخ التي تعطيها فيما إذا تمسكنا بالأرقام التي يدل عليها كربون ١٤ . . .».

والحالة التي يخشى أن تصبح مثالاً كلاسيكياً في عدم رصانة كربون ١٤ هو الذي يتعلق بقرية جارمو(٢) التي يعود وجودها إلى ما قبل التاريخ، وهي قرية تقع في الشمال الشرقي من العراق. فالأحد عشر حساباً التي أجريت لمعرفة عمر هذه القرية دلت على أنها كانت مأهولة بالسكان خلال ٦,٠٠٠ سنة بينما قد دلت شهادات علم الآثار على أنها لم تسكن بصورة مستمرة إلا خلال ٥٠٠ سنة». وقد أكدت «مجلة العلوم» الصادرة في ١٦ (آب) اوغست ١٩٦٣ عدم دقة طريقة الكربون ١٤ بقولها: «إن الأخطاء في معرفة الأعمار بالاشعاع الكربوني يمكن أن تكون بآلاف السنين».

ولذا، فمن الثابت أن كل تاريخ يحصل بطريقة الاشعاع الكربوني ويدل على أن وجود الانسان، على سطح هذه الأرض، هو تاريخ مشكوك فيه.

ولكن ألم نجد عظاماً من المفترض أنها ترجع في وجودها إلى آلاف السنين؟ وكيف يمكن تفسير اكتشاف بعض أجزاء مفاصل مرفق قالت عنه جريدة «نيويورك تايمس» في صفحتها الأولى، من عدد ١٤ (كانون الثاني) يناير

(١) كان هؤلاء العلماء الذين وضعوا هذا الكتاب يتكلمون بعلم فلما أدخلوا التوراة في الأمر وضعوا في طور الخرافات، لا سيما وقد ثبت علمياً الآن بأن الطوفان لم يكن عاماً، وما طوفان نوح إلا أحد الفيضانات التي حدثت في بقاع مختلفة من العالم وأدت إلى تدمير الجهة التي حدثت فيها. (راجع قصة الطوفان في مجلة العربي عدد شهر مارس ١٩٨١).

(٢) Jarmo.

١٩٦٧ «أنه قد اكتشف عظم في كينيا يدل على وجود الانسان منذ ٢,٥٠٠,٠٠٠ سنة؟

فبأية وسيلة يمكن معرفة هذا التاريخ؟

إن الطريقة التي استعملت في هذه الحالة هي ليست كربون ١٤ بل هي بوتاسيوم أرغون. وتقول «المجلة العلمية الأمريكية» في عدد (أيلول) سبتمبر ١٩٦١ بهذا الصدد بما يلي: إنه لا توجد أي طريقة لمعرفة عمر أي عظم يزيد على ٥٠,٠٠٠ سنة، ولذا فإن العلماء يحللون نماذج من الصخور التي تؤخذ فوراً من فوق ومن تحت العظم المكتشف. وبقياس ما تحويه هذه الصخور من بوتاسيوم ٤٠، وبقياس حاصل انحلال أرغون ٤٠ يحدد العلماء عمر الصخور ولا سيما إذا كانت بركانية وهم يصدرون، في فحصهم هذا، عن اعتبار أن الصخور التي فوق العظم قد تشكلت بعد وجود العظم في الأرض، وبالتالي فهي بعمر العظم إذا لم يكن العظم أقدم منها.

ومهما يكن من أمر، فإن استعمال بوتاسيوم أرغون غير أكيد النتائج في تحديد عمر الصخور البركانية ذات التكوين الحديث نسبياً، وذلك لأن مدة إشعاع البوتاسيوم هي ١,٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (مليار وثلاثمئة مليون) سنة أي إنه لا بد من مضي مثل هذه المدة حتى ينحل نصف البوتاسيوم ويتحول إلى غاز أرغون. ومن هذا يبدو بأن اللجوء إلى تحديد عمر الصخور القديمة، التي ترجع إلى بضعة ملايين من السنين، بهذه الطريقة شبيه بقياس الثواني في ساعة ليس فيها عقرب للساعات. وقد كتبت مجلة «التاريخ الطبيعي»(١) في عدد (شباط) فبراير ١٩٦٧ تؤكد ذلك بالعبارات التالية: «يبدو أن طريقة تحديد التاريخ بالبوتاسيوم ارغون، طريقة غير دقيقة إذا كان التاريخ دون مليون سنة. وبالتالي هناك فترة خلال فترة بلييستوسين(٢) الدنيا والوسطى يكون تحديد عمر بقايا الانسان فيها صعباً وغير أكيد.

(١) Natural History.

(٢) Pléistocène هي أطول فترة في العصر الرباعي المسمى Quartenaire وهذا العصر أقرب =

هذا بالإضافة إلى أن تحديد عمر الصخور البركانية بواسطة بوتاسيوم ارغون تقوم على فرضية وهمية، إذ تفترض بأن النشاط البركاني قد أذاب كل غاز الارغون، الذي يوجد في الصخور ونفاه. ولكن بقاء أثر طفيف من هذا الغاز يجعل آلة القياس لا تقف على الصفر في البداية، ولذا يكون العمر الذي تشير إليه أكثر بكثير من حقيقته. وبمناسبة اكتشاف تم على يدي الدكتور «ليكي» في وادي «اولدووى»[1] في أفريقيا كتبت مجلة «العلم» بتاريخ ٢ (نيسان) ابريل ١٩٦٥ تقول: «اعترض العلماء على تحديد العمر بـ ١,٧٥٠,٠٠٠ سنة... بسبب إمكانية كون النماذج التي فحصت غير سليمة، مثل أن تكون حاوية غاز الارغون ساعة تبلورها أو أن تكون أصابتها العدوى بعد ذلك عن طريق الجو، وترى جماعة من أساتذة جامعة «جان هوبكنز»[2] «أن هذه التواريخ قابلة للجدل». هذا، وإن الأعمار التي تقدر بواسطة بوتاسيوم ارغون لا تتبع دوماً عامل الزمن، إذ قد تقدر عمر طبقة سفلى أقل من عمر طبقة عليا.

إن بوتاسيوم ٤٠ الموجود في الأرض لم ينقطع قط عن إنتاج ارغون ٤٠، لهذا لا بد للحصول على تاريخ مضبوط من أن يكون غاز الارغون قد زال من الصخر تماماً، بالذوبان، حينما يثور البركان، لأن وجود أي أثر لهذا الغاز يحدث أخطاء في التاريخ تقدر بكثير من الملايين. ومثال ذلك إن أثراً ضئيلاً جداً من الارغون يبقى في الصخر يكفي لكي يجعل طبقة بركانية عمرها ٥,٠٠٠ سنة ١,٧٥٠,٠٠٠ أو ٢,٥٠٠,٠٠٠ سنة. وقد كتبت مجلة «ساينس دايجست» في عدد (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٢ بشأن عدم دقة طريقة بوتاسيوم ارغون

= العصور إلينا وأقصرها في تاريخ الأرض الذي بدأ منذ أقل من ثلاثة ملايين سنة. ويمتاز هذا العصر بظهور الانسان وتطوره وعرف في اوروبا بفترة جليد متتابعة. والبليستوسين يوافق فترة الحجر المنحوت Paléolithique التي دامت مئات آلاف السنين، ثم جاءت فترة ميزوليتيك Mesolithique وهي التي بدأت ما بين ١٠,٠٠٠ و ٨٥٠٠ سنة قبل الميلاد، وامتازت بحرارة الجو، وبنى الانسان فيها الأكواخ على شواطىء الأنهار.

(١) Oldoway.

(٢) John Hopkins.

تقول: «لقد حدد عمر الأرض بطريقة بوتاسيوم ارغون بـ ٤,٥٠٠ مليون سنة، ثم ظهر رقم جديد وهو ٦,٥٠٠ مليون سنة». فبماذا نفسر فرق هذين المليارين من السنين بين الرقمين؟

تقول المجلة ذاتها ما يلي: لعل هذا الرقم الجديد الذي قدمه علماء الروس ناشىء عن سهوهم عن بعض العوامل في آلية التاريخ بواسطة بوتاسيوم ارغون.

وهناك طرق أخرى لمعرفة الأعمار، ولكن لا يوجد طريقة واحدة تثبت خطأ التوراة بتعيين عمر الانسان بـ ٦,٠٠٠ سنة. لا شك بأنه قد اكتشفت مستحاثات حيوانات أقدم من هذا التاريخ ولكن رواية التوراة ذاتها تقول إن الحيوانات وجدت قبل الانسان بآلاف السنين.

فمن أين أتت، إذن، المستحاثات الكثيرة التي وجدت مدفونة تحت طبقات الأرض السميكة وتحت الصخور؟ هل هي نتيجة الثورات البركانية؟

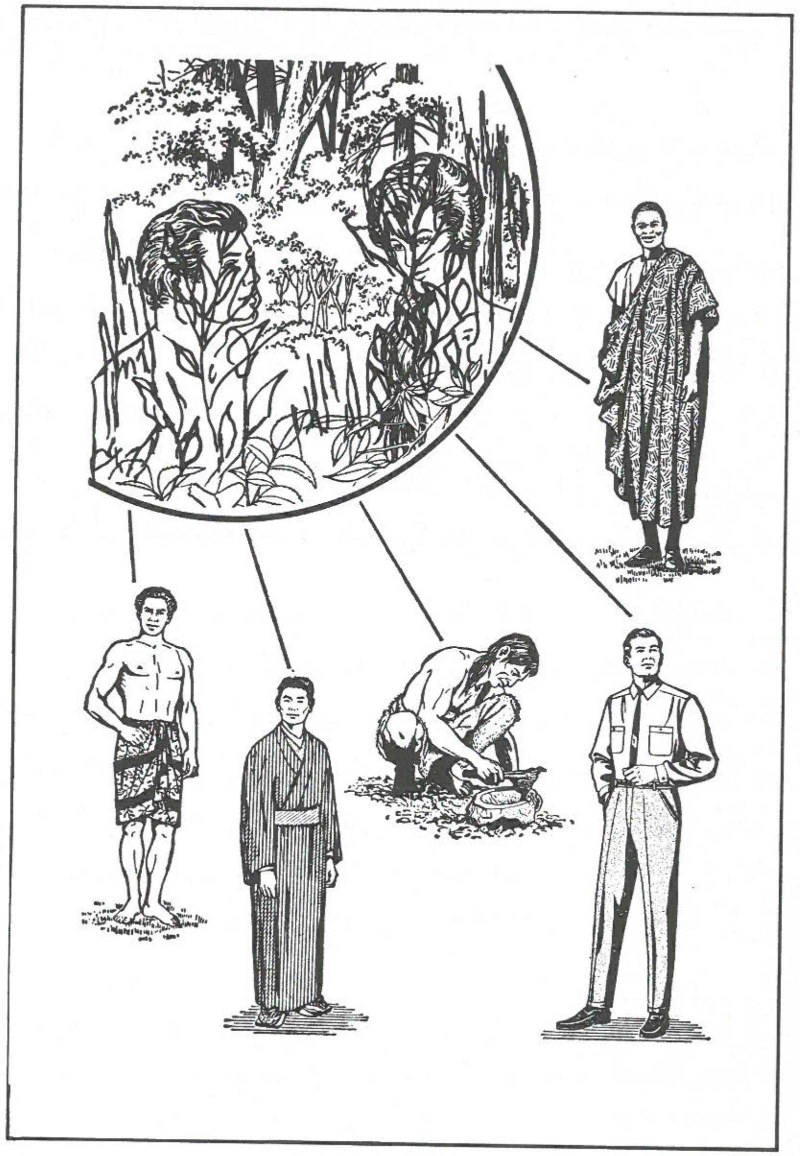

«كل الأجناس انحدرت من الزوجين الأولين الآدميين، وقد تطور بعضهم واكتسبوا معارف كثيرة، وتقدم البعض الآخر في بداية أمرهم ثم انحدروا، وزال آخرون من الوجود ولم يتركوا أثراً».

LAU LIBRARY

الكوارث الطبيعية

لقد افترض علماء التطور أن قشرة الأرض لم تتعرض لأي تغيير ذي بال منذ ظهور الحياة عليها، ولذا فإنهم حينما يرون مستحاثات مدفونة على عمق أمتار من التراب والصخور غير البركانية يجزمون بأن هذه المستحاثات قديمة جداً.

بينما الواقع هو أن قشرة أرضنا لم تبق على حالها الأول، بل قد تغيرت بفعل كوارث أرضية عظيمة دفنت مستحاثات تحت مواد أرضية أقدم منها عمراً. وقد تعرضت مجلة «نيوزويك» في عدد ٢٣ (كانون الأول) ديسمبر ١٩٦٣ لهذه الكوارث وقالت:

«إن كلمة الكوارث الطبيعية موضع جدل بين علماء طبقات الأرض، وهي تعني تدخل القدرة الإلهية. ويؤكد القائلون بها بأن تاريخ الأرض والحياة الأرضية كونتها سلسلة كوارث جاءت من عند الله. وآخر هذه الكوارث طوفان نوح. وقد لاقت هذه النظرية رواجاً خلال عشرات السنين من القرن الماضي ولكنها تلاشت بفعل حملات شديدة شنها الطبيعيون على المؤمنين نافين عن الله تدخله في هذه الأمور، وفي نفيهم يد الله أغمضوا عيونهم عن أمر ثابت يمكن أن يزيد إدراكهم في فهم طبقات الأرض وفهم التطور... ومثال ذلك: هناك أدلة تشير إلى أن مساحات كبيرة من الأرض غمرت بالمياه خلال أيام، وغالباً ما يلي هذه الكوارث نمو انفجاري في مختلف أشكال الحياة».

وعلق عالم من علماء المستحاثات في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي على ذلك بقوله: «إن الذين يدرسون طبقات الأرض يعرفون أن حاضرنا هو مفتاح ماضينا، وكثيراً ما يقولون بأنه لم يحدث شيء فيما مضى لا يحدث الآن. ولكن منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ظهر جيل جديد، وظهرت معطيات جديدة؛ بحيث بدأنا ندرك بأن كوارث كثيرة حدثت في الماضي لم يتكرر بعضها قط».

وجاء في النشرة العلمية: (العلم السنوي) لسنة ١٩٦٥ حديث عن الكوارث التي تعرضت لها قشرة الأرض قالت فيه: إن اكتشاف الفحم والفوجير[1] المتحجر في جبال انتاركتيك[2] يدل على أن الجو كان أكثر حرارة، فتغيرت الحالات الجوية تغيراً كبيراً».

وهناك أسطورة كتبت تحت صورة عالم بطبقات الأرض تقول: «إنه واقف على هضبة منعزلة في أرض فيكتوريا[3] وهو يرى بأن هذا الوضع هو نتيجة طوفان عظيم حدث قبل آلاف السنين».

هذا، وإن حركات الكتل المائية العظيمة، وكذلك قشرة الأرض ذاتها قد أحدثت تغيرات في سطح الأرض وفي جو كوكبنا، فدفنت تحت أطنان من التراب، كثيراً من أنواع الحيوانات وحتى الانسان. ولهذا السبب فإنه لا يكفي أن نراقب الآن ما يحدث، وأن نستخلص منه بأن ما يحدث اليوم قد حدث مثله في الماضي.

أما أن يكون قد حدث طوفان أو كارثة عظيمة في ماضٍ قريب نسبياً؛ فهذا مما يؤيده كثير من المستحاثات والجثث التي وجدت في كتل الطين

(١) Fougère نبات له في العربية أسماء كثيرة منها: بطارس، وخنشار، وسرخس وهو عبارة عن ورق ليس له زهر ولا ثمر ويشبه سعف النخل، ويبلغ ارتفاعه مترين.

(٢) Antarctique قارة تقع في حلقة القطب الجنوبي. نفوسها ١٣ مليون نسمة وهي مغطاة بكتل جليدية يزيد سمكها على ألفي متر وليس في هذه المنطقة نبات ولا حيوان أرضي، وهي غير مأهولة باستثناء بعض المراكز العلمية.

(٣) هناك أماكن كثيرة تعرف بهذا الاسم منها: عاصمة هونغ كونغ. ومنها: ولاية في جنوب اوستراليا. ومنها: جزيرة في ارخبيل اركتيك الكندي. ومنها: ميناء في كندا.

الجليدي. وقد كتبت مجلة «ستردي ايفننغ بوست» في ١٦ (كانون الثاني) يناير ١٩٦٠ مقالاً بعنوان: (سر العمالقة المتجمدين) تقول فيه ما يلي:

«إن جزءاً من سبعة أعشار سطح الكرة الأرضية تقريباً مغمور بالماء، وهو يمتد حول المحيط الأركتيكي ودائم الانجماد... وإن الجزء الأكبر من هذه المنطقة مغطى بطبقة من الطين المتجمد والذي يتراوح سمكه بين عشرات من السانتيمترات وبين أكثر من ثلاث مئة متر وهذا الغطاء مؤلف من خليط من مواد مختلفة وكلها مستورة بالجليد الذي يبدو كالصخر. وفي بعض الأحيان يحوي، بصورة خاصة، رملاً ناعماً أو وحلاً وكمية كبيرة من التراب، وقليلاً من العظام بله جيف حيوانات محفوظة إلى حد ما أو متفسخة...

إن قائمة الحيوانات التي وجدت في هذه الكتل الطينية المتجمدة تملأ صفحات كثيرة. وإن أعظم سر هو أن نعرف متى ولماذا وكيف قتلت هذه المخلوقات الكثيرة المختلفة وحطمت وانجمدت بشكل مخيف...

إن بقايا الحيوانات هذه لم توجد في دلتا أو في مستنقع أو في مصبات أنهار، بل هي مبعثرة من أقصى البلاد إلى أقصاها. ومن الأعجب أيضاً أن عدداً من هذه الحيوانات قد اكتشفت طرية وكاملة وليست بجريحة وهي إما أنها قائمة أو راكعة... وهي بالتالي لوحة مذهلة؛ إذ نجد قطعاناً كثيرة من حيوانات ضخمة سمينة غير معتادة على المناخ البارد، وهي تأكل بهدوء في مرعى مشمس، وترعى بلطف العشب في جو معتدل لا يحتاج فيه المرء إلى لبس معطف، وفجأة هلكت كلها من غير أن نرى أي أثر ظاهر يدل على أنها خضعت لعنف، وحتى قبل أن تجد الوقت لتبلع آخر لقمة من علفها، ثم إنها انجمدت بسرعة بحيث أن كل خلية من جسمها حفظت حفظاً تاماً».

ومع ذلك فهذا هو ما حصل من جراء الطوفان الذي حدثتنا التوراة عنه حينما انفجرت قبة المياه السماوية وأغرقت الأرض بساكنيها، ويبدو أنه قد رافق ميازيب المياه التي سقطت على الأرض موجة من الهواء البارد في المنطقة القطبية، فحدث أعظم تغيير فجائي في جو القطبين أدى إلى حفظ هذه المخلوقات في كتل

من الطين الجليدي. وبدلاً من أن تتجمد المخلوقات عند خط الاستواء فإنها غطيت بطبقات من الطين والتراب أقدم بكثير من المخلوقات المدفونة فيها.

وتحدث «هبكود»[1] أستاذ تاريخ علم الانسان القردي عن الكوارث في مقال نشر في جريدة «ستردي ايفننغ بوست» عدد ١٠ (كانون الثاني) يناير ١٩٥٩، تحت عنوان: (حركات قشرة الأرض) قال فيه ما يلي: «إن من أعظم الكوارث التي دمرت الحياة هي تلك التي حدثت في أواخر العصر الجليدي[2] الأخير.. وكانت كارثة طبيعية، قال أحد الكتاب المشهورين أنها قتلت في أمريكا الشمالية وحدها نحو ٤٠ مليون حيوان... فاكتست الحياة الأرضية خلال بضعة آلاف من السنين حلة تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه... إذ كانت فيما مضى ملايين الحيوانات تعيش، في رخاء في مناطق هي اليوم ذات مناخ قطبي...

أما فيما يتعلق بآخر فترة جليدية؛ فإن المعلومات الجديدة التي حصلنا عليها إنما تزيد في تعقيد سر هذه الفترة... فقد أدت طريقة الاشعاع الكربوني، لمعرفة التواريخ، بالعلماء إلى إعادة النظر في تاريخ آخر فترة جليدية حدثت قبل عشرة آلاف سنة وليس قبل ثلاثين ألف سنة...

لقد أدى هذا الاكتشاف إلى الشك في المبدأ الرئيسي للطريقة التي وضعها «شارل ليل»[3] فهذا العالم بطبقات الأرض، والذي عاش في القرن التاسع عشر، يفترض أن تسلسل الحوادث الطبيعية الجيولوجية من مطر وثلج وانهيار وترسب إنما كانت تحدث فيما مضى كما تحدث اليوم... ولكن حدث في أواخر الفترة الجليدية الأخيرة أن حصل تسارع كبير في هذا التسلسل الجيولوجي وذلك بفعل عامل عمل في الماضي وقد تعطل اليوم عن العمل.

---

(١) Hapgood.

(٢) الفترة الجليدية Glaciaire: هي فترة من فترات العصر (Quartenaire) امتازت بتراكم الثلوج في شمال اوروبا وجبال الالب وكندا.

(٣) Charles Lyell ١٧٩٧ ـ ١٨٧٥.

هذا، وإن معرفة التواريخ بطريقة جديدة أخرى، هي «الايونيوم» قد قلبت مفاهيمنا السابقة رأساً على عقب، إذ استعملت في الكشف عن تاريخ بعض الرسوبات المأخوذة من قاع بحر روس؛ فتبين أنه قد مرت فترات عديدة، منذ مليون سنة، على الانتاركتيك لم يكن فيها منطقة جليدية وأن آخر فترة جليدية اكتسحت منطقة بحر روس كانت منذ ٦,٠٠٠ سنة.

الوثائق الأولية المخطوطة

حينما يؤكد علماء التطور على أن الانسان وجد على سطح هذه الأرض منذ مئات آلاف السنين، ويرفضون أقوال التوراة التي تعطي الانسان عمراً أقصر بكثير؛ يظن الناس أنهم قادرون على إثبات أقوالهم بوثائق تاريخية. وهذا ما كان يعتقده العالم بالفيزياء الذرية الاستاذ «ليبي»[1] الحائز على جائزة نوبل وفي طليعة العاملين بطريقة الاشعاع الكربوني لمعرفة التواريخ. وإليكم ما كتبه في مجلة «العلم» بتاريخ ٣ (كانون الثاني) يناير ١٩٦١:

«إن الأبحاث الضرورية لتطوير طريقة معرفة التواريخ هذه يجب أن تتم في وقتين: أولاً ـ معرفة تاريخ الأشياء التاريخية، ثم فحص نماذج عائدة إلى زمن ما قبل التاريخ. لقد عجبت أنا ومساعدي «ارنولد»[2] حينما أخبرنا مستشارونا بأن التاريخ لا يصعد إلى أبعد من ٥,٠٠٠ سنة.

إننا كثيراً ما نقرأ تصريحات تؤكد بأن الجماعة الفلانية أو المكان الأثري الفلاني يرجع بتاريخه إلى ٢٠,٠٠٠ سنة. وقد علمنا فجأة بأنه ليس بالمستطاع تعيين هذه التواريخ والأزمان، المغرقة في الزمن، تعييناً دقيقاً قط. وفي الواقع أن أقدم الأزمان التاريخية التي حددت بشيء من الدقة تعود إلى زمن السلالة الفرعونية الأولى».

---

(١) W. F. Libby.

(٢) Arnold.

هناك كتب مراجع كثيرة تؤيد التوراة وتقول بأن الوثائق البشرية لا تعود إلى أكثرمن نحو ٦,٠٠٠ سنة وتقول «موسوعة الكتاب العالمي»[١]: إن أقدم شهادة تتعلق بتاريخ الانسان ترجع إلى نحو ٥,٠٠٠ سنة فقط. وتقول «الموسوعة الأمريكية»: إن التطور الاجتماعي للانسان لا يشغل أكثر من عشرة آلاف سنة وقد ظهر بصورة رئيسية خلال الـ ٦,٠٠٠ سنة الماضية. ويقول كتاب: (علم الأحياء اليوم)[٢] بشأن استعمال الانسان للمعادن ما يلي: «لقد بدأ عصر المعادن قبل نحو خمسة آلاف سنة وامتد حتى يومنا هذا».

وإليكم ما تقوله نشرة «علم الأحياء»[٣]: «إن اختراع الكتابة منذ نحو ٥,٠٠٠ سنة دشن عهد تاريخ الانسان، وقد وصف الزمن الذي سبق هذا الاختراع بزمن ما قبل التاريخ. ويقول كتاب (العصور الأولية للانسان)[٤]: إن أقدم كتابة نعرفها هي الكتابة المسمارية ومصدرها سومير، ويمكن إرجاع اختراع هذه الكتابة إلى ما قبل نحو ٣٥٠٠ سنة ق. م.

هذا ما تعترف به هذه الكتب كأمور ثابتة، وإذا ما رجعنا إلى بعض الشهادات رأينا أن العلماء القائلين بالتحول يزيدون أشياء من عندياتهم ويتخيلون. ويقول الاستاذ «وينتشستر» في كتابه: (علم الأحياء وصلته بالانسان)[٥] ما يلي: «هناك خطأ كبير شائع وهو قياس عمر الانسان جرياً وراء التاريخ المكتوب. إن الروايات التاريخية تعود إلى نحو ٣,٠٠٠ سنة ق. م. ولكن هذه المدة لا تمثل إلا جزءاً ضئيلاً جداً من وجود الانسان على سطح الأرض».

ويقول الاستاذ مونتاغو[٦] في كتابه: (العصور الأولية للانسان): إن

(١) World Book Encyclopedia.
(٢) Biology for Today.
(٣) Review Text in Biology.
(٤) Les Premiers Age de L'Homme.
(٥) A. M. Winchester. Biology and its Relation to Mankind.
(٦) A. Montagu.

التاريخ المكتوب لما حققته البشرية لا يغطي أكثر من ٦,٠٠٠ سنة؛ بينما قد وجد الانسان على وجه هذه الأرض منذ فترة نستطيع تقديرها بمليون سنة. وجاء في كتاب: (علم الأحياء والتقدم الانساني)[١] لـ «ايزمن وتنزير» ما يلي: «لقد تقدم الانسان خلال الـ ٦,٠٠٠ سنة الأخيرة بخطوات أسرع من تقدمه خلال وجوده في فترة ما قبل التاريخ التي تبلغ ما لا يقل عن مليون سنة.

فلنعلم بأن الـ ٦,٠٠٠ سنة الأخيرة تسمى «فترة تاريخ الجنس البشري»، ووجود الانسان خلال هذه الفترة ثابت بالوقائع والوثائق والمدن القديمة والأبنية الأثرية والكتابات وغيرها من الأدلة والأدوات، ولا يوجد مثل هذه الأدلة للدلالة على وجود الانسان قبل هذه الفترة، ولذا فقد وصفت الفترة التي سبقت الفترة التاريخية بفترة ما قبل التاريخ، وفي الواقع فإن كل ما يقال عن إنسان ما قبل التاريخ مبني على ظنون وافتراضات، أو بمعنى آخر هو: نتيجة تكديس نظرية فوق نظرية وأعني التطور.

إن وجود الانسان على وجه الأرض حديث بالنسبة إلى وجود الكون، ولكن الانسان يملك قدرة على الارتقاء بسرعة. ويقول «وايزمن» في كتابه: «اكتشافات جديدة في بابل تتعلق بخلقة الكون»[٢] ما يلي:

«إن من أعجب ما أثبتته الأحفار الحديثة هو ظهور المدنية في العالم بشكل انفجاري. وقد جاء هذا الاكتشاف بخلاف ما كان ينتظر منه؛ إذ كان علماء الآثار يظنون أنهم كلما أغرقوا في الزمن وجدوا أنفسهم أمام جماعات بدائية حتى ينتهوا بأن يفقدوا كل أثر للمدنية، وهناك يكتشفون آثار الانسان الأول. ولكن هذا لم ينطبق على الواقع لا في بابل ولا في مصر موطني أقدم إنسان نعرفه. ولكن ألا يشكل تكديس المعلومات جيلاً بعد جيل، وهي الصفة المميزة للفترة التاريخية، دليلاً على التطور؟ إذا كان القصد من التطور هو تحول نوع حيٍّ إلى نوع آخر فالجواب هو النفي القاطع. ثم إن البابليين القدامى والمصريين واليونان

(١) Biology and Human Progress. L. Eisman. C. Tanzer.
(٢) New Discoveries in Babylonia About Genesis.

الذين وجدوا قبلنا بآلاف السنين كانوا أذكياء بالخلقة مثلنا. هذا مع العلم أنهم لم يكونوا يملكون المعلومات الواسعة التي نستطيع نحن اليوم أن نغترف منها. وإضافة معلومات جديدة إلى معلومات جاهلة من قبل لا يعني امتداداً للتطور العضوي، بل يعني الارتقاء واستعمال القدرات التي يتمتع بها الانسان منذ خلقته.

وجاء في مجلة «ساينس ورلد» في عدد ١ (شباط) فبراير ١٩٦١ بهذه المناسبة ما يلي: «إن الانسان قد وقف عن التطور منذ زمن بعيد، وهذا القول يخالف الفكرة السائدة والقائلة باستمرار التطور، فالجنس البشري الذي نحن منه لا يختلف في شيء عن الكائن البشري الذي عاش قبل مئة ألف سنة.

إن ماضي الانسان منذ أقدم العصور قد سار على نمط واحد من غير أن يغير شيئاً في الانسان والاختلاف الكبير الذي يوجد بين ناحيتي الأحجار الصوانية، فيما مضى، وبين ورثتهم. أبناء اليوم، إنما هو حصيلة المدنية والثقافة المتراكمة المنقولة إليهم عبر الأجيال، بالتقاليد الاجتماعية. ولو كان بالامكان ـ وبصورة خارقة ـ بعث طفل عاش اليوم لأصبح إنساناً مثلنا تماماً».

وكتبت «الموسوعة الأمريكية» بهذا الصدد تقول: «إن القسم الأكبر مما نعتبره، غالباً، تطوراً إنسانياً إنما هو تطور اجتماعي وليس تطوراً عضوياً... وليس تطور الانسان اجتماعياً هو نتيجة تطور عضوي.

وليس هناك من شك في أن الانسان القديم كان على درجة عالية من الذكاء بدليل هذه البرقية التي نشرتها جريدة «نيويورك تايمس» بشأن اكتشاف ظهر في العراق قالت:

« منذ ألفي سنة ق. م. كان لتلاميذ شاديبور، وهي بلدة في إمارة سومير، كتاب يحتوي على حل لقضية المثلث الشهيرة. أي قبل اقليدس بسبعة عشر قرناً... وكان هذا الكتاب مصنوعاً من لوحات من فخار تحتوي على خلاصة موسوعية لمعلومات علمية تابعة لذلك الزمن. وقد اقتضى هذا

الاكتشاف إعادة النظر الكاملة في تاريخ تطور العلوم وبالتالي في تاريخ تطور الفكر الانساني.

وهذا يدل على أن الرياضيات بلغت قبل ألفي سنة درجة من التطور لم تخطر على بال علماء الآثار والمؤرخين».

وهذا الاكتشاف يساعدنا على أن ندرك أننا إذا أخذنا طفلاً من الأقوام البدائية، التي يسميها بعض العلماء، بأقوام ما قبل التاريخ وعلمناه خلال جيل من الزمن، وأدخلناه في جماعتنا المعقدة... فقد يكون في بداية الأمر دوننا، ولكن لا من حيث الطاقة الدماغية بل من حيث تكديس المعلومات، فإذا تعلم، كما يجب، فإنه يرتقي كأي شخص منا. وهكذا كان شأن الانسان منذ وجوده أي منذ ٦٫٠٠٠ سنة.

الانحطاط
أو التحول إلى الوراء

لقد كان من نتيجة انتشار الانسان على سطح الأرض أن انتشرت ثقافات مختلفة ومتفاوتة الدرجات في تقدمها، ولكن تقدمها ونموها لم يكونا نتيجة تطور بل كانا نتيجة أسباب جغرافية ولغوية.

وإذا كانت بعض الثقافات قد انحطت عن مستواها الأول حتى صار أهلها يعيشون عيشة أهل العصر الحجري؛ كما هي حال قبائل غينيا[1] الجديدة، وبعض قبائل أفريقيا، وسكان اوستراليا الأصليين، وأهل الهند الاصليين المعروفين باسم (دراوريين)؛ فإن هذا يثبت بأن ارتقاء الانسان لا يظل مطرداً في التقدم، بل قد ينحدر بعد ارتقاء. وكل هذه الأقوام التي ذكرناها والتي هي، اليوم، في أدنى درجات الانحطاط، كانت في يوم من أيام الدهر أمماً راقية، على اعتبار أن الله خلق الانسان في أحسن تقويم.

(١) أكبر جزيرة في العالم بعد جزيرة كرونيلند. وتقع في شمال شرق اوستراليا وتبلغ مساحتها ٧٧١٫٩٠٠ كيلومتر مربع.

وقد بدأ العلم يكتشف بأن إنسان اليوم البدائي ليس على مرتبة متأخرة من التطور.

وقد جاء في تقرير مؤتمر علماء الانسان القرد الذي نشرته مجلة: (سنة العلم) لسنة ١٩٦٦، ما يلي:

«إن أكثرية المشتركين، في هذا المؤتمر، متفقون على أن كثيراً من الشعوب الموصوفة اليوم، بأنها بدائية هي، في الواقع، أقل بدائية بكثير مما كان يظن. ويعتقد المؤتمرون بأن بعض قبائل صيادي البر في افريقيا وفي وسط الهند وفي أميركا الجنوبية وفي جزر المحيط الهادىء الغربي ـ ليسوا من بقايا العصر الحجري، كما كان يظن، بل هم بقايا جماعات راقية، اضطروا لسبب من الأسباب أن يتخذوا لأنفسهم نوعاً بسيطاً من الحياة، فانتهوا إلى ما هم عليه اليوم من تأخر».

وما يطرأ على الحياة ينعكس على اللغات. فانحطاط قوم من الأقوام يؤدي إلى انحطاط لغتهم. وإليكم ما قالته، بهذا الصدد، مجلة: (أخبار العلم) في عددها الصادر في ١٩٥٥/١٢/٣:

يقول الدكتور «ماسون»[1] المختص باللغات الأمريكية «أنه لا توجد لغة بدائية، وإن القول بأن المتوحشين يتفاهمون بدمدمات، وانهم غير قادرين على أن يعبروا عن بعض الأفكار ذات الطابع المدني، إنما هو رأي خاطىء».

ويقول الدكتور «ماسون»: «إن هناك عدداً كبيراً من لهجات أقوام أميين هي في الواقع أشد تعقيداً من اللغات الأوروبية الحديثة».

ويضيف قائلاً: «إن تطور اللغات يخالف التطور البيولوجي إذ أن اللغات سارت من التعقيد إلى التبسيط».

---

(١) Mason.

ونجد الرأي ذاته في كتاب: (العصور الأولية للانسان) للعالم التطوري «مونتاغو» حيث يقول:

«إن كثيراً من اللغات التي نصفها بأنها بدائية تبدو في كثير من الأحيان ذات صفات معقدة تحيّر العقول، وهي في بعض الحالات أقدر على التعبير، عن بعض الأشياء من اللغات التي ترافق المدنيات والتي نعتبرها لغات راقية».

هذه أمور ثابتة لا جدل فيها، ومن هذا نستطيع أن نستنتج بأن الانسان الذي نسميه بإنسان ما قبل التاريخ كان في الواقع (هومو[1] سابيين) أي إنساناً عاقلاً، وكان من بقايا نوعٍ إنساني، وكان معاصراً لأناس مثلنا، وقد انفصلت هذه البقايا، عرقاً وجغرافيةً، عن سلالات إنسانية كبيرة، وبدلاً من أن ترتقي فإنها قد انحطت واندثرت إلا بقايا منها.

وكتبت «الموسوعة البريطانية» تقول بهذا الصدد ما يلي: «في الفترات الأولى من اكتشاف المستحاثات القديمة كانوا يعتبرون الانسان النياندرتالي الجد النموذجي للانسان (سابيين) ولكن اكتشافات أخرى أضيفت إلى الاكتشافات الأولية أظهرت بأن الصفات التي قيل إنها بدائية كانت في الواقع صفات ثانوية، وهي نتيجة تطور رجعي (انحطاط) بدأ من أشكال أناس سابقين لا يختلفون كثيراً عن الانسان (سابيين)، وهذا يدل على أن شكل الانسان النياندرتالي كان مسبوقاً بنوع من الناس أكثر انتشاراً. والشيء العجيب هو أن حجم دماغ هذا الانسان كان كبيراً لأن استيعاب الجمجمة المتوسطة كان يزيد حتى على استيعاب جماجم العروق الانسانية العصرية».

هذا، بالإضافة إلى أن العلماء أخذوا، مع تقدم العلم، يزدادون يقيناً من أن الانسان لا يستطيع أن يتجاوز عقابيل تأثير الانحطاط المتعاقب الذي أصيب أجداده منذ القدم ووصل إليه بالوراثة عنهم. وقد كتبت جريدة «نيويورك تايمس» في ١٩٦٦/١٠/٣٠ مقالاً بعنوان: (الطب وسر شيخوختنا) تقول: «إن الجهود المبذولة، الآن، لإطالة عمر الانسان قد باءت بالفشل وعلماء

---

(١) Homo Sapien.

اليوم متفقون على أن عامل الموت ليس بواحد، وأن التغلب على بعض الأمراض مثل السرطان ومرض القلب لا يكفي لإطالة العمر، بل لا بد من البحث عن أمراض أخرى ومعالجتها.

ويقول «جان روستان» التطوري: مهما يكن من أمر فإننا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار إلا نتائج الاختلافات الإرثية الموجودة في النوع الانساني تبين لنا أنها تدل على نتائج انحطاط أكثر منها نتائج ارتقاء.

كل جنس من المخلوقات الحيوانية والنباتية ينتج مثله في النوع والحجم.

شهادات حية على وجود الخالق

على الرغم من عدم كمال الانسان، فإن تركيب جسمه شهادة حية على وجود الخالق الذي خلق هذه الكائنات الناطقة بوجوده.

وكلما تقدم العلم وازداد العلماء إحاطة بآلية جسم الانسان ازدادوا تعجباً بهذه الآلية وإعجاباً بصنعها. وقال الدكتور «اكرس»[1] وهو خبير فني في جامعة «رايس»، وقد تعاون مع جراحين في صنع قلب مصطنع، ما يلي: إن جسمنا هو الكمال ذاته وهو غاية ما تصل إليه التقنية، ومهما يكن نوع الآلة التي يمكن أن تصنع، ومهما بلغت من التعقيد والكمال فإننا نجد في تركيب جسمنا ما هو أفضل منها، ونظرة واحدة نلقيها على تكون الطفل في رحم أمه تقنعنا بأعجوبة المراحل التي يمر بها. كما تقنعنا بأنه لا بد لهذه الصنعة المركبة العجيبة من صانع ماهر وكلما تعمق الانسان في تشريح جسم الانسان، وأدرك دقائقه يزداد إيماناً بوجود الخالق. إن عملية الأكل والبلع، والهضم وتحويل الطعام إلى دم وسكر وأحماض، والاحتفاظ بالنافع منه وطرح الفضلات... كل أولئك مما يدعو بلسان الواقع إلى الاقرار بوجود الخالق.

وإذا تركنا الانسان جانباً وأخذنا بعض الحيوانات، ورأيناها كيف تبني أجحارها، وكيف تربي جراءها، وكيف تعنى بتغذيتها وحفظها وأخذنا بعض الطيور، ورأينا كيف تبني أعشاشها، وكيف تسعى في رزقها، وكيف تطعم

(١) W. W. Akers.

فراخها. ثم لو أخذنا الحشرات كالنحل والنمل ورأينا كيف تبني بيوتها وكيف تنظم حياتها الاجتماعية، وكيف تصنع النحل العسل. . . لا يسعنا مهما كابرنا إلا أن نقول «سبحان الخلاق العظيم».

ثم لو نظرنا إلى رحلات بعض الطيور التي تقطع صيفاً وشتاءً آلاف الكيلومترات في رحلات معينة وطرق مرسومة لا تحيد عنها، وأوقات لا تتقدم فيها ولا تتأخر. . . وإذا ما نزلنا إلى البحار نرى فيها أسماكاً تهاجر سنوياً هجرات بعيدة، وتسلك طرقاً معينة لا تضل عنها، ومنها من يعيش في البحار والأنهار على حد سواء أو أنه تتوالد في الأنهار وتعود إلى البحار، وهلم جرا. . .

ثم لو أخذنا النباتات وكيف أنها تخضر وتزهر وتثمر بعد أن تكون حطباً، ثم كيف تعطي أكلها من بزرة صغيرة. . . ومن عجائب صنع الله أن جعل الثمار الصغيرة كالجوز واللوز والتين والتفاح والبرتقال وأمثالها معلقة في أشجار ضخمة، بينما جعل الثمار الكبيرة كالبطيخ واليقطين والقثاء والخيار وأمثالها ملقاة في الأرض لأن الثمار الصغيرة لو سقطت على رأس إنسان فلا تضره، بينما لو سقطت الثمار الكبيرة على رأس إنسان لدقت عنقه.

أليس في هذا كله آيات للمتفكرين؟ فهل ينكر الخالق إلا جاهل أو مكابر؟

إن الآيات الدالة على وجود الله كثيرة، ولكن الخوض في شرحها وتفصيلها بطرق علمية يخرجنا عن موضوع كتابنا الذي هو موضوع عام ولكل إنسان، وليس لطبقة واحدة من الناس. وأما الذين درسوا الطب والكيمياء والهندسة، وقد اطلعوا على صنع الله اطلاعاً علمياً لا يسعهم إلا أن يؤمنوا بوجود خالق صانع لهذه الكائنات. وإذا كان من السهل على الجاهلين أن ينكروا وجود الخالق من غير أن يكلفوا أنفسهم الاتيان بأي دليل على أقوالهم ـ لأنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل ـ فإن العاقل لا يعتد بأقوالهم لأننا نعيش في زمن لا يقبل فيه قول بغير دليل.

ولقد رأينا أو سمعنا بكثير من الناس، لا بل من كبار الناس، الذين كانوا ملحدين في حياتهم؛ فلما أصبحوا بين يدي الموت ثابوا وتابوا وأعلنوا إيمانهم

وأوصوا بأن يعاملوا في دفنهم وفاقاً لتعاليم دينهم الذي يدينون به أو الدين الذي خلقوا عليه، والإيمان بالدين يعني الإيمان بالخالق، ولذا فليس من عجيب إذا ما وصف العلماء الانسان بأنه «حيوان متدين»، ولذلك نرى بأن بعض العلماء الذين قالوا بالتطور كانوا يؤمنون بوجود خالق هو الذي خلق الخلية الأولى في الحياة وكأن الذي يخلق الخلية، التي هي نواة الحياة، يصعب عليه أن يخلق الانسان أو الحيوان مباشرة على كثرة ما فيهما من خلايا. ولكن عذر هؤلاء هو انهم يقيسون قدرة الخالق بقدرة الفرد أو قدرة المخلوق. ولو فكروا قليلاً لأدركوا أن خلق الخلية الأولى ثم تطويرها حتى تكون إنساناً كاملاً لا يقل عن خلق الانسان كاملاً.

ولعل من أعجب ما في تفكير القائلين بالتطور أنهم كلهم من الذين يؤمنون بالمسيحية ديناً، وبالتالي بأن عيسى إلهاً أو ابن إله. . . فمن العجب أن يجمعوا بين هذين التفكيرين. ولكن قد ثبت الآن أن لا علاقة للتفكير السليم بالدين؛ فقد يكون المرء متديناً ولكنه يؤمن بالخرافات، أو يكون متديناً بالاسم منكراً بالفعل ولله في خلقه شؤون!

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الفصل الأول: مدخل إلى التطور	١٣
الفصل الثاني: شرح نظرية التطور	٢٣
الفصل الثالث: هل تأتي الحياة من الجماد	٣٥
الفصل الرابع: ماذا تكشف المستحاثات	٥١
الفصل الخامس: القانون الأساسي لعالم الأحياء	٦٣
الفصل السادس: هل الانتقال يعني ايجاد أشكال جديدة للحياة	٧٣
الفصل السابع: الارث يحفظ الصفة المميزة للأنواع	٨٥
الفصل الثامن: هل القردة أجدادنا	٩٥
المستحاثات الحديثة	١٠٥
الكوارث الطبيعية	١٢٥
شهادات حية على وجود الخالق	١٣٧

من منشورات «دار النفائس»

- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تأليف: محمد فريد. تحقيق: الدكتور إحسان حقي.
- التوراة (تاريخها وغاياتها)، سهيل ديب.
- التوراة بين الوثنية والتوحيد، سهيل ديب.
- الدين في مواجهة العلم، وحيد الدين خان.
- لا نزاع بين العلم والدين، الدكتور عبدالحليم عويس.
- استراتيجية الفتوحات الإسلامية، أحمد عادل كمال.
  ١ ــ الطريق إلى المدائن.
  ٢ ــ القادسية.
  ٣ ــ سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية.
  ٤ ــ الطريق إلى دمشق.
- قاموس الغذاء والتداوي بالنبات، أحمد قدامة.

خلق لا تطوّر

مات « دارون » وماتت نظريته . دفنها علماء « لادينيون » مثل « دارون » . ومع ذلك يصر بعض اللادينيين على حقنها بأكسير الحياة ، لا اقتناعاً بالعلم ، بل نكاية بالدين .

في هذا الكتاب ، يتصدى عدد من العلماء لمناقشة نظرية التطور ، ويثبتون بالبرهان العلمي ان الانسان هو ابن ادم ، وليس ابن قرد .

وقد قام الدكتور احسان حقي بترجمة آراء هؤلاء العلماء بتصرف ، وقدمها في هذا الكتاب الشائق ، بأسلوب علمي مبسط ، عسى ان تساعد في كشف الغشاوة عن بصائر قوم مخدوعين .

الناشر

دار النفائس